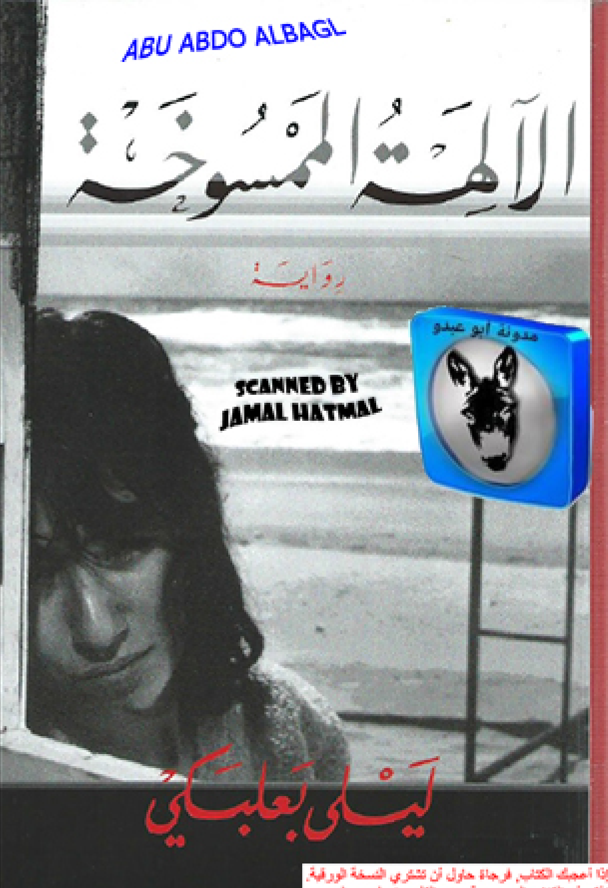

ABU ABDO ALBAGL
الآلهة الممسوخة
رواية
مدونة ابو عبدو
SCANNED BY
JAMAL HATMAL
ليلى بعلبكي

الآلهة الممسوخة

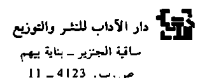
ليلى بعلبكي

الآلهة الممسوخة

رواية

دار الآداب ـ بيروت

الآلهة الممسوخة
ليلى بعلبكي/رواية لبنانيّة
الطبعة الأولى عام 1960
الطبعة الأولى لدى دار الآداب 2009
ISBN 978-9953-89-148-4


دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123 - 11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03) - 795135 (01)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
ranaidriss@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

جوابٌ على أسئلة

إذا كانت «أنا أحيا» رواية عفوية متفلّتة، ثائرة على الأساليب التي كانت متّبعة في كتابة القصة الطويلة، عالجتُ مشاكل أبطالها ببساطة ووضوح.

فقد تعمّدت أن تكون «الآلهة الممسوخة» رواية معقّدة، لها بناء واضح وصعب، بعد أن كان البناء في «أنا أحيا» خفيًّا يسري كسلك من الحرير الناعم الشفّاف في جسم الرواية، ثم استبدلت البطل الواحد في «أنا أحيا» الذي هو محور الأحداث، استبدلته بعدّة أبطال في «الآلهة الممسوخة» لهم التأثير نفسه والأهمّيّة نفسها والتحكّم نفسه في سير مصائرهم.

ثم قصدت «بالآلهة الممسوخة» أن تكون تجربة أدبيّة جديدة لي، وأن تكون ردًّا على النقّاد وعلى الذين اعتبروا «أنا أحيا» «بيضة الديك» وفهموا منه أنّه خواطر فتاة صغيرة وتفاصيل حياة خاصّة أعيشها شخصيًّا.

هنا أودّ أن أشرح أمرًا هامًّا بالنسبة للكاتب:

في كلّ ما ينتجه الكاتب، أيّ كاتب، شيء من نفسه ومن تجربته الخاصّة التي يمارسها على جلده هو أو يشاهد الآخرين يمارسونها في عزلتهم. وفي كلّ ما ينتجه الكاتب كثير من الأشياء المحيطة به، ومن صور العالم الذي يحلم به أو يسكنه.

والغريب أنّ الكاتب الذي يجمع موادّه من نفسه أو من الآخرين الذين يلمسهم ويراهم والأشياء التي يستعملها، عندما يكتب عنها تأخذ شكلاً آخر وطعمًا آخر ومعنى آخر.

يُقاس إبداع الكاتب في مدى قدرته على اكتشاف عالم جديد من موادّ مألوفة يعرفها، وتتّضح مهارته عندما تغيب الوجوه التي استعارها، والجمادات التي وصفها وتدوين الكلمات التي سمعها، وتموت الأصوات، لتولد بين أصابعه وجوه يجد كلّ قارئ فيها عينيه ويسمع صوت تنفّسه.

ولا أنكر أنّ في كتاباتي صوتي أنا، وفيه تنفّسي ونبضات فكري، وفيه لمسات أصابعي، ولكنّني أحيانًا كثيرة، لكنّني دومًا، أقف مدهوشة أمام اكتشافاتي.

كتبت «الآلهة الممسوخة» كنت أنا عايدة الزوجة، وكنت أنا ميرا الصديقة. وكنت أنا الدمية. وكنت أنا الأمّ. وكنت أنا نديم. وكنت أعالج حياة هؤلاء الأشخاص من

الداخل، كنت دائمًا في ذروة الانفعال معهم. وكنت أملك القدرة على امتلاكهم، والدخول إلى أغوار أنفسهم، فقط في: ذروة الانفعال. كانوا يهربون منّي. كنت أضيّعهم في كلّ لحظة يهدأون. لهذا جاءت «الآلهة الممسوخة» غريبة على القارئ العربي وحتى على الناقد. كنت فيها كالشاعر الذي ينظم قصيدة ـ والآلهة الممسوخة قريبة من الشعر، تعتمد على الصورة والرمز والإيحاء الموجز بدل السرد التفصيلي المتّبع في كتابة الرواية، ولهذا فهي رواية جديدة.

لماذا اخترت هذا العنوان؟

لا أدري. يجب أن يُطرح السؤال هكذا: لماذا اخترت هذه القصّة لهذا العنوان، لأنّ العنوان حضر في البداية كصخرة شقّت الأرض وتفجّرت من جوانبها أنهر سريعة التدفّق عديدة.

وأعني بالآلهة الممسوخة كلّ ما يمثّله أشخاص الرواية. وأختصره بأمر واحد هو ما سمّيته في الكتاب «الجدار المقدّس» أعني عذريّة الفتاة. فمن خلال هذا المعبود تبدأ تفاصيل حياتنا في هذا المجتمع الشرقي الكبير المتعدّد الطوائف الذي يغلي بالثورات والحنين إلى الماضي...

ونحن منه نحبّ. ومنه ننجب الأطفال. ومنه نسجد في بيوت الله. ومنه نأكل خبزنا. وهو الذي يحدّد سبب

هنائنا. وهو ميزان كرامتنا. وانطلاقًا منه تتفرّع سلطات العائلة، الأمّ والأب ورئيس الدولة ونجاح النوّاب في الانتخابات ونظرة الجيران والغرباء إلينا. هو باختصار سبب وجودنا في الحياة وهو الموت.

وهذا ما أردت أن أصوّره في رواية «الآلهة الممسوخة» وأنا أجعل كلّ شخص فيها إلهًا ممسوخًا. كنت أقصد السخرية طبعًا. وكنت أتألّم من هذا الموضوع. وكنت أكره كتابته. كنت أعجّل في رميه بين يدي كومة من الخرق البالية تشتعل في راحتي وتأكل لحمي.

ولم يكن الكلام عن هذا الموضوع سهلاً، كنت دائمًا في حذر شديد حتى لا أقع في العاديّة. خيط دقيق، دقيق كالشعرة، يفصل الغرابة عن الابتذال.

ومع كلّ كتاب أعيش قصّة كتابة هذا الكتاب، حتى مع كلّ مقال. وهذه القصص طريفة وهامّة. لم أفكّر بتسجيلها لسبب واحد بسيط، وهو أنّها تفاصيل حياتي الطبيعيّة التي أعيشها والكتابة عندي نتيجة هذه الحياة وليست هي الغاية.

أذكر أنّني في «الآلهة الممسوخة»، كنت أنا عايدة الزوجة التي هجرها زوجها ورفض منحها الطفل عقابًا لها على ممارستها حرّيّة جسدها قبل أن تتعرّف إليه، وسكنتني عايدة كالجنّ في الحكايات التي كانت تقصّها عليّ جدّتي. كنت مثلها أضيع في الطرقات. مثلها أشتهي الأطفال.

ووصلت في الرواية إلى مشهد تمسك فيه الدمية وتقذفها في البحر وتتقلّص أصابعها. وكنت غارقة في المشهد، مأخوذة، أرتجف، وفي المشهد تقلّصت أصابع عايدة في الهواء. وكنت أكتب المشهد على آلتي الكاتبة. وفجأة. فجأة تقلّصت أصابعي أنا على حروف الآلة السوداء. وذُهلت. وخفت. ومضت دقائق ثم صرخت. وأذكر أنّ أختي أسرعت ودخلت الغرفة ممتقعة الوجه وراحت تفرك عروق يدي اليابسة. عندما اختفت الدمية في قعر البحر تحرّكت.

شخص آخر أفلت منّي في «الآلهة الممسوخة»، وهذا الشخص أردت أن أميته فهرب في «أنا أحيا»، حاولت أن أوقع به في «الآلهة الممسوخة» فوضعته أمام شبّاك لأجعله يرمي نفسه من الطابق الثالث وانتظرت. مشى الشخص خطوة. فتح الشبّاك. ومشى خطوة وسمع ضجيجًا في الشارع. ولفح وجهه هواء الليل البارد المنعش. فتبسّم وتراجع وبدأ يحلم. هذا الشخص هو أيضًا «لينا» التي حاولت أن ترمي نفسها بين الترام وسيّارة مسرعة في «أنا أحيا» فأنقذها أحد المارّة. وهذا الإفلات من الموت هو الذي لا يجعل لرواياتي نهاية. تظلّ الحياة مستمرّة باستمرار سيرهم على الأرض.

لم يُحْكَ عن «الآلهة الممسوخة» كما حُكي عن «أنا

أحيا» ولم يُقرأ مثله ولم يُحبّ. ولهذا أسباب فنّيّة، وشخصيّة، وماديّة لا دخل لها بمحتوى الكتاب، أنتظر منذ أربع سنوات لأتحدّث عنها.

«الآلهة الممسوخة» رواية قريبة من الشعر كما أوضحت سابقًا، وهي رواية، مع بساطة عبارتها وسهولة الجملة فيها، تتطلّب جهدًا في القراءة وقدرة على الغوص إلى أعماق أبطالها وربط مشاكلهم بعضها ببعض، وفهمها، فلست أنا كاتبة متعة وتسلية وترفيه، أكتب لأزعج القارئ. لأقذف همومه في وجهه. لأحرّك عواطفه وفكره وجسده.

يهمّني طبعًا أن أُقرأ، أي أن يُباع كتابي. أسرع هنا وأشرح أنّ طبع الكتاب عمليّة لا علاقة لها بأنّني لا أهتمّ برأي الآخرين بي ولا أفكّر بهم حين أكتب، أمّا إذا صدف ومرّوا في خيال، أضحك، أضحك في سرّي وأنا أتخيّل الوجوه التي سيلبسونها عندما يطالعون كتبي، ويزيدني هذا اندفاعًا في التحرّر منهم والتوسّع في موضوعي.

والظاهرة الغريبة أنّ الذين طالعوا كتبي هم أكثر بكثير من الذين اشتروا هذه الكتب. السبب المؤسف أنّ الفرد العربي يفضّل بثمن كتاب أن يذهب إلى السينما أو إلى المقهى، أو يشتري علبة علكة أو شوكولا أو أيّ شيء آخر للتسلية والمضغ. والفرد العربي يعتقد أنّ أيّ قرش يذهب للكتاب هو هدر وغباوة، لهذا إذا استهواه كاتب ما عمد

إلى استعارة كتابه من مغفّل اشتراه، أو يطلبه هديّة من المؤلّف.

الذي يُحزن أنّ هؤلاء المئة مليون، الذين يزيدون كلّ يوم ألوف الرؤوس، هؤلاء إذا استهلكوا خمسة آلاف نسخة من كتاب في سنتين أو أكثر اعتبر الكتاب ناجحًا.

الذي يُدمي القلب أنّ الناشر يحتمي بهم، بالقرّاء، ليمتصّ دم الكاتب ويذلّه ويثبت له فشله ويساومه على القرش ويسلبه حقوق إنتاجه.

ومع أنّني من أكثر الكُتّاب الذين ينتظر القارئ إنتاجهم، سواء أكان هذا القارئ ضدّي أو معي، مع هذا أحسست منذ البداية أنّ الكاتب في العالم العربي، وخصوصًا في بيروت التي تدّعي النهضة الثقافيّة والمركز الفكري الوهّاج وعاصمة الطباعة والنشر، أنّ الكاتب في عالمنا معزول ومهمل ومطعون من الظهر ومأكول حقّه.

بسذاجة، حاولت أن أثور على الوضع، وكنت في مرحلة «الآلهة الممسوخة» القرار الذي اتّخذته في أن أتولّى بنفسي طبع هذا الكتاب وتوزيعه يلتصق بقصّة هذا الكتاب. والقصّة مرعبة وقصيرة، سريعة كالريح، بدأت في المطبعة وقبض صاحب المطبعة ثمن الطبع ثم لم يخرج الكتاب من المطبعة، باعه صاحب المطبعة، وكنت غائبة عن لبنان، وقبض ثمنه مرّتين، باعه لا أدري إلى من، إلى بقّال أو

لحّام أو إلى... إلى لصّ مثله.

ولم ينجُ من «الآلهة الممسوخة» إلاّ بضع نسخ كنت قد وزّعتها قبل أن أسافر. لم أشاهد من كتابي نسخة واحدة بعد عودتي!

وهكذا حدث، وكلّما أنتهي من تأليف كتاب أشعر بالقرف والخوف والحزن. وبشلل وقساوة وغضب أستجمع شجاعتي لأكمل طريقي، ففي رأيي أنّ الجواب الكبير عند الكاتب هو أن ينتج، أن يظلّ ينتج، مهما كانت النتيجة ومهما كان الوضع، بهذا الإنتاج يتفوّق على الآخرين، وبه ينتصر، فأرجو أن أتمكّن دومًا من سرد قصّة قصصي إلى النهاية.

ليلى بعلبكي

في ١٠ نيسان ١٩٦٥

١

ارتمى على المقعد في بيته، فربضت تحت حذائه أثقال سنوات قليلة آتية يريدها (أريدها صاخبة، ملوّنة، حالمة. خمس وأربعون سنة أسحبها بقدميّ تقف معي. تنام وتأكل. . .).

وفرك شفتيه بيده يذيب الصقيع فيهما. وانتصبت زوجته أمامه تتدلّى على خدّها الجافّ ظلال شفاه قاسية تمزّق اللّحم وتدميه، بدل أن تقدّده غذاء بخسًا للدود.

واقتربت من خزانة الراديو تُجلس فوقها دمية بحجم طفل عمره شهر، وأغمضت عينيها تتحسّس رأس الدمية، ثم استرقت نظرة تتفقّد الزوج الغارق في خرسه، وعجّلت تلثم قدمي الدمية الحافيتين، وانزلقت إلى غرفة نومها، وقبل أن تغلق الباب ناداها:

«عايدة».

جمدت برهة تتشبّث بالحافّة الخشبيّة، ثم نبتت على

شفتيها ابتسامة شرهة، ورجعت إليه، فطلب منها بانكسار ونظراته مدفونة في السجّادة:

«عايدة أريد زجاجة من الويسكي».

فهمهمت غاضبة:

(زجاجة؟ يحسب نفسه في خمّارة وأنا المضيفة).

وانحنت على كتفه تودّ جرف انتباهه عن السجّادة الملعونة فمدّ لها علبة السجاير، انتزعت منها لفافة ثم انتشلت الزجاجة عن رفّ صغير في بار يتعمشق على حائط الصالون، فإذا هي ثقيلة، ثقيلة أجبرتها على رمي السيجارة لتغمرها بأصابعها العشر. وكزكزت أسنانها تقطع رجفة تحرّكت لتدور وتعصف بين فخذها اليسرى وركبتها. اتكأت على ظهر المقعد وجمدت نظراتها فوق عروق يديها الخضراء النافرة، ودبَّ ارتخاء كسيح إلى رأسها ثم توغّل في ذقنها إلى عنقها إلى ثدييها ففكّرت:

(وفتّشت بعينيها عن قدح تكسره، وتغرز قطعة منه مسنّنة في الجلد المطّاط المزروع على وجه يديها، ليتدفّق اللّزج القاني غزيرًا رقراقًا تفرغه في جوف زوجها: هذا البركان الذي ينطفئ كلّ ليلة بقدح ويسكي على مقعد في الصالون، وينام في غرفة مكتبه على الصوفا بعد أن يقفل بابه من الداخل بالمفتاح).

وأقبلت الخادمة تحمل سطل الثلج الفضّيّ ثم تفحّصتها مستفسرة:

«سيّدتي لماذا، لماذا أنت صفراء كفستاني الجديد سيّدتي؟».

ولحوست الخادمة شفتيها الغليظتين تبتلع حشريّتها ونقرت الدهشة بياض عينيها الحائرتين وهي تفكّر (هل السيّدة صفراء لأنّها... هل هي... هل هي؟ هذه مصيبة، العمل يسلّي مع شخصين كبيرين أمّا أن يأتي ثالث صغير يوعوع ويوسّخ.. هل هي صفراء لأنّها؟..).

وانزلقت الزجاجة من سجن أصابع الزوجة الرخوة، فشهقت الخادمة وهجم الزوج إلى مكان الحطام تعصر يده الشرسة علبة الكبريت، تعميه غمامة عطش أسود يفسّخ اللحم على شفتيه وأنفه، وتدلّى رأس الزوجة على كتفها، وغاصت عيناها في بركة الشراب المدلّل، ثم تشعّبت معه في روافد نحيلة.

وردّد الزوج يتّهمها:

«أنت، أنت تعمّدت كسرها».

«لا».

«بلى».

واستدار يركض فحبست فمها وكادت تختنق: (نديم..

نديم. .) وارتطم باب غرفته خلفه، فتأوّهت. ثم أنّت. وبكت. وكتمثال نحّات فاشل تقلّبت إلى غرفتها وانهارت على السرير، وتحسّست حرام الصوف البنّي ثم هبّت تنتصب وسط الغرفة وهجمت إلى الصالون، وعادت تحتضن الدمية، وأطفأت الضوء وغاصت في صقيع فراشها، ومن فتحة قميص نومها دلّت ثديها وركّزت الحلمة على فم الدمية الأحمر المطبق.

٢

خيوط الشمس، شمس تشرين الثاني الباهتة، مزتوتة على حيطان البنايات وعلى الأرصفة الضيّقة وأكتاف المارّة.

والناس يهجمون من الطرقات المختفية إلى ساحة البرج الصاخبة، ثم يتفرّقون إلى بيوتهم ومطاعمهم لتناول طعام الغداء، ويرجعون منها إلى مدارسهم ومكاتبهم وورش أعمالهم.

في جوف الساحة توقّف فجأة بعض الرجال يحيطون بجسم سقط. ثم اقتربت امرأة وشرطي وطفل يحمل صندوق تشكيلتس.

عن الرصيف انحنت ميرا قليلاً، تتفحّص جثّة رجل تتعرَّم بين سيقان المتفرّجين، يلمع الوجه الأصفر فيها وتتدفّق من الفم رغوة رماديّة، فغمغمت (والذي أيضًا سقط على الرصيف ميتًا، توقّف قلبه عن الخفقان فمات. مات.

وهذا الرجل سقط ولن ينهض مرّة أخرى. سقط. وأنا بغتة سأموت كوالدي، كهذا الرجل).

وشقّق الزحام عويل سيّارة الصليب الأحمر البيضاء فسدَّت ميرا أذنيها بأصابعها، وأدارت وجهها للحائط (يوجعني صراخ هذه التي تكنس الأموات عن الطرقات. لماذا لا تُتمّ هذه المكنسة عملها بصمت؟ بخرس؟).

وانتاب ميرا دوار أصفر، وغطست في غيمة بنفسجيّة، واتّكأت على واجهة بائع الساعات، فأطلّ شابٌ من الباب الزجاجي وتبسّم لها مداعبًا، فأغمضت عينيها وتسرّب ارتخاء أغبر إلى ركبتيها واختطفت الغيمة البنفسجيّة وجه الشابّ والسيّارات والمارّة.

وتمتمت ميرا:

(لن أسقط).

وحرّكت قدمها. وتعلّقت يداها بالحقيبة. وغرزت نظرها في فضاء الشارع الضاجّ. وتمهّلت قرب صفّي المسامير على الإسفلت ترتجف (إذا سقطت وسط الشارع ستعجنني دواليب السيّارات وأحذية المارّة).

وتشابكت الأحذية في عينيها وتدافعت، أحذية وسخة. أحذية لمّاعة، أحذية مفتوقة... وكلّها، كلّها تنخر في رأسها ثقوبًا عميقة تمتدّ إلى العنق.

(الآن سأسقط).

وأحسّت أنّ الكعوب المسنّنة تنغرز في عينيها وتتدلّى، والدماء تنفجر من أذنيها وتطمر رقبتها، وتلطّخ الأحذية.

(لن أسقط).

واستندت إلى جنزير الحديد، ثم تراجعت وحقيبتها على الرصيف، يرفعها رجل انحنى أمامها، دون أن تلتفت إلى وجهه تمعّنت في حذائه (هذا رجل لطيف حذاؤه يضوّي كالنجمة).

وتعلّق انتباهها بقبّعة الشرطي الكحليّة، ثم بيده الزائغة. وتجمّعت السيّارات الكثيرة وضاعت يد الشرطي بين هذه الآلات المفترسة (أين يد الشرطي؟ لا. لن أسقط).

ولمستها بغتة يد حذرة. وأمرها صاحب القبّعة الكحليّة:

«هيّا اقطعي».

صوّبت نظرها إلى الرصيف المقابل، ومشى الدوار الأصفر بليدًا في رقبتها إلى صدرها إلى قدميها. ولاحت لها مقدّمة السيّارات أفواهًا تتدلّى منها أنياب طويلة مسنّنة تشتهي اللحوم النيئة والعظام الطريّة في هذه الظهيرة الشتويّة الصقعة.

ومشت في بحر الزوغان الكسيح. وزعقت صفّارة غضبى. وهاج الشرطي يوقف شابًّا:

«هيّا، انتظرني بسيّارتك على جنب. ألا ترى الناس أمامك يقطعون؟».

وثقل رأسها (أودّ أن أستريح. أن أجلس على الأرض. أن أتمدّد) وانحشرت في سيّارة السرفيس مع رجل وامرأة في المقعد الخلفي، وكمنت في الزاوية (هكذا، إذا سقطت لن أؤذي أحدًا).

واشتدّ عصف الدوار في يديها (أودّ أن أرمي رأسي على كتف الرجل).

وعلى الصوفا، في بيتها، تجاه صورة الوالد الميت، انهارت ميرا، وسرى في دمها ملل بطيء كحبّات جليد (الحقيقة أنّني بدأت أقرف. يضايقني العمل: ترتيب ملفّات العملاء في شركة التأمين ثم الإجابة على التلفونات. ويضجرني النوم بعد الغداء كلّ يوم، كلّ يوم. كما أنّني صرت أنزعج من مشاهدة الأفلام: والاستماع للراديو، ووالدتي تنرفزني وهي تنغل في البيت لا تبرحه إلاّ لتشتري الحاجات. وتحافظ على مواعيد طبيب أسنانها. ويغضبني هاني، فهو يحبس نفسه في غرفتنا ويسافر فيها مع كلّ لحن يغزو بيروت.

لهذا أفضّل أن أنطفئ الآن وسريعًا كوالدي. كالرجل الذي سقط بين الأقدام).

بعدها،

راحت تتهيّأ للّحظة.

(ربّما الليلة).

جمعت أوراقها ومجلاّتها وصورها وأشعلتها حريقة بيضاء بين قدميها الصغيرتين. وشبّ الحريق الأبيض إلى كتفيها يدفئها ويولع في صدرها خدرًا بليدًا، وتفجّرت روائح ملوّنة وانهارت في خاطرها شريطة زرقاء كانت تحزم شعرها خصلة واحدة في قمّة الرأس لتبدو بها مرتّبة كأيّة طفلة لها أب يغادر البيت في الصباح ويعود إليه مع الغروب، وكانت هذه الحريريّة اللعينة مسمارًا دُقّ في رأسها يصبغ كلّ أشيائها بالقاني اللزج.

وجرفت النيران لطخ الشمس الباهتة التي كانت تعصر عينيها أيّام الربيع الخانقة. أيّام وقحة، ثقيلة، الشمس فيها بيضاء والبحر والسماء والطرقات.

وازرقّت النار في عينيها وهي تمضغ ذكريات أيّام العطل المالحة البكماء المطّاطة. وشقّق اللهب الناعس وجهًا تعرفه. إنّها تعرف هذا الوجه، تعرفه، كلّ خدّ فيه جبل من الحمرة، والشفة ذاوية، والعينان مبريّتان، وبقايا الأسنان تقرمشان خبزًا يابسًا وأوراق ملفوف أخضر. وجه معلّمة كانت ترتدي فستانًا حريريًا في الشتاء مرّت أوائل أيّامها في المدرسة: هذا السجن البارد. واختفت المرأة بعد أسابيع لأنّها طُردت. هكذا سمعت ميرا ولم تقتنع بالسبب،

طُردت لأنّها فقط تلبس ثيابًا حريريّة في الشتاء وتأكل الخبز وأوراق الملفوف.

والتفّت النار حول الوجه المتخشّب تبتلعه، ثم امتدّت إلى جسد المرأة كلّه تجرفه. وخمدت النار تحت أظافر قدمي ميرا، فغسلت الحمّام بسطل ماء.

(ربّما الليلة).

ومسحت الغبار عن حوافّ إطار صورة الوالد، ثم ركّزت الصورة على مخدّتها تتعرّف إلى أدقّ، أدقّ ملامح الوالد، فهو الوحيد الذي ستقابله هناك. تقول الوالدة إنّه يشبه هاني: (عيناه خضراوان. شعره أشقر، ووجهه هادئ كنسائم الربيع...).

لكنّها قلقة.

ألم يتغيّر وجه الميت طوال هذه السنين؟ ألم تتجعّد جبهته؟ ألم يبيضّ شعره؟ ألم يبهت أخضر عينيه؟ ألم يتزوّج مرّة أخرى وينجب أطفالاً؟ هل، هل سيعرفها هو. يستقبلها. ويرعاها؟

(ربّما الليلة).

واشترت براتبها ثيابًا داخليّة منوّعة وبيجاما ورديّة برقت لها عينا بائع النوفوتيه، وتنهّد يحسد رجلاً سيلامسها، سيداعب القماش الشفّاف ويمزّقه. وإذا هي تندسُّ كلّ

مساء في فراشها تخاف أن تطبق جفنيها (وإذا انهار السقف، وهجمت أحذية المدينة كلّها تتكدّس على وجهي فتخنقني روائح التراب. وأوراق الشجر. ورؤوس الجبال وجلد الماعز).

(ربّما الليلة).

وهجم المطر يحتلّ المدينة، فسالت المياه من شقوق الحيطان، وركدت في زوايا السطوح، وتدفّقت من المزاريب، وتقطّرت من عواميد الكهرباء وأبواب السيّارات، وتفجّرت من مجارير الطرقات، فأقفلت المدينة شبابيكها تحت غطاء رماديّ فاحم (لن تهبط الغيمة البنفسجيّة الآن. وتختطفني كالوالد. كرجل الشارع. الغيمة البنفسجيّة تحوم فوق وتلطّخ الشارع ببقع حمراء. ستزحلق حاملو التابوت، وتذبل الورود، وتتجلّد الأنوف، وتوحل الثياب. فيسرعون للتخلّص منّي، ويتركونني وحيدة في العتمة.

لا. أنفر أنا من التراب. والصخور. والرمل. والنباتات تجثم على صدري).

(ربّما الليلة).

وكتبت وصيّة صغيرة:

(حين تغتالني الغيمة البنفسجيّة، أودّ أن أُدفن في قعر

البحر واللعنة على كلّ من يخالف رغبتي).

وتنهّدت مرتاحة بعد أن وضعت نسخة منها تحت مخدّتها. ونسخة في حقيبة يدها. ونسخة على الطاولة، تحت ملفّ، في مكتبها.

(ربّما الليلة).

ولم تعد تتطلّع إلى الوجوه، حتى إلى وجه أمّها أو أخيها. وإذا الأشخاص حولها أحذية تراقبها: العملاء في شركة التأمين. المارّة في الشارع، روّاد السينما... (هكذا إذا غبت نهائيًّا لن يخسر أحد، وإذا مات أيّ إنسان حولي لن أفقد أكثر من حذائه).

٣

صديقتي.

عجيب أمر البناية التي أسكنها، ففيها ثلاثة وعشرون مسكنًا وثلاثة وعشرون بابًا تظلّ مغلقة، وإذا انفرجت من حين إلى حين فلكي يقفز منها رأس يختفي في المصعد ويركض في الطريق. أمّا بيتي أنا فحتى الشبابيك فيه وأبواب الغرف تظلّ دومًا مسدودة.

الآن،

الآن همس الصاعدين الحذر يخنقني، فلماذا لا يزعقون؟ لا يشقّقون الأبواب الصدئة بضحكهم، ويقتلعون النوافذ فيهجم كلّ جار إلى بيت جاره يتسامرون ويرقصون ثم يهدمون بأحذيتهم السقوف، فتُمسي البناية كلّها علبة تعجّ بالأطفال والنساء والشيوخ، ويحتضنون بعضهم بعضًا، يطردون هذا الصقيع الذي يغزو طرقات بيروت، ويذيبونه. يذيبونه دفئًا في عيوننا؟

منذ ثلاث سنوات،

منذ تزوّجت وسكنت هذه البناية، وأنا أحاول أن أتقرّب إلى أيّ إنسان هنا ففشلت. فشلت حتى بمصادقة كلابهم وهررتهم. وأظنّهم يعرفونني هم: السيّدة التي تقطن الشقّة ـ ٨، زوجة أستاذ فلسفة التاريخ في الجامعة.

لقد فاجأتهم مرارًا يبصقون من شرفاتهم، ويغمرون بوجوههم انحدار البصقة باهتمام وحنان ورعاية إلى أن تستقرّ على الرصيف أو على كتف أحد المارّة أو رأسه أو سطح سيّارته.

أرجوك لا. لا.

لا تستفهميني لماذا أعلّق أهمّيّة على نفور الجيران منّي. لماذا لا أنجب طفلاً يملأ ساعاتي ضحكًا ووعوعة، وأنعم، أنعم بمناغاته، بالركوع جنب سريره؟

أيّتها الصديقة،

آه. كيف أبدأ. لا أدري، لا أدري. إنّما كلّ ما هنالك أنّ زوجي يأبى أن يمنحني الطفل. يأبى. يأبى.

لماذا يبخل عليّ بطفلي؟

كم أنت طيّبة، ألا تعرفين أنّه هو الرجل وأنا المرأة: امرأته؟

أف، كم أنا لجوجة. السـبب؟

زوجي يعاقبني، لأنّني حطّمت جداره المقدّس.

مهلاً. لا تتصنّعي البلاهة، أظنّك عرفت ما معنى الجدار المقدّس. والآن أصغي إليّ:

بعد أسبوعين من تعارفنا تزوّجنا. هو في الثانية والأربعين. وأنا في الخامسة والثلاثين. وريشة ملايين غزيرة وكلّ بشاعة الأرض.

في تلك السهرة،

كانت تبدو على وجه نديم ظلال سنين ماضية معربدة، وخيالات هوجاء دنيئة. ولم يكن يلمح أيّ جفن، على وجهي أنا، حين يشدّون على يدي مهنّئين، لم يكن يلمح أيّ إنسان أثر الحطام في عينيّ الضيّقتين. على شفتيّ المزمومتين. على أنفي الضخم.

كنت أتوارى خلف ثوبي الأبيض الهفهاف كالثلج. كندف القطن. كأجنحة الملائكة. وكنت أستخفّ بشفقتهم المشرشرة على ذقونهم يمسحونها بالأكواع:

(مسكين نديم، هذه المرأة مرعبة. تزوّج دراهمها التي تطمر ساقيها الرخوتين).

لا أدري كيف تجمّع الناس حولنا في تلك السهرة، من أين أتوا؟ ثم كيف اختفوا بعد ذلك؟ فلم أعد ألتقي بهم، وإن صدفة في الطريق.

حين اختفوا،

انطرح نديم على سريرنا في الأوتيل كطبخة «هريسة» باردة تلصقها في قعر طنجرة النحاس كوم صفراء من الدهن والسمن الحموي. وصمت ساهيًا يتفرّج عليّ كيف أخلع ثيابي بارتباك. أجل، كنت مرتبكة وخائفة. ثم مستعدّة لمجابهة كلّ هجوم، حين يسجد زوجي ـ صاحب الجدار المقدّس ـ فيجده مدنّسًا.

وكأنّما هو في علبة ليل تافهة يحضر نمرة «استربتيز» تُثير النعاس، جذبني إليه، فاحتكّت فخذي بذراعه. وحرّك أجفانه بفتور. وتفحَّص عينيّ، ثم قفز يفتّش عن الشفتين. وتمهّل على صدري. وانقضّت أصابعه على وركيّ توجعهما، ثم تناغيهما. وضلّت يداه بين التعاريج فلهثت:

«هل تحبّني؟ هل تحبّني؟».

لم يجب.

وضعت أنا في موجات أضواء حمراء، صفراء، خضراء، رماديّة، بيضاء، ثم عوى.

وزعق يرميني عن الفراش:

«يا إلٰهي. عفوك يا إلٰهي. الجدار منهار يا إلٰهي».

أنت كافرة. مجرمة. أنت منحطّة لعينة.

كيف تجرّأت؟ كيف تجرّأت؟

وراح يصفعني:

«يا إلٰهي

أنا لم أمرمغ يومًا في تراب الحائط المقدّس أطلب بركته. مع أنّني عاشرت مئات النساء. لم أفتح يومًا باب الهيكل الجليل، لأنّني لم أكن قادرًا على تحمّل مسؤوليّة التعبّد للجدار المقدّس.

يا إلٰهي، ساعدني، يا إلٰهي».

وداس على ظهري، على وجهي، على بطني فقهقهت والدم يسيل من أنفي راسمًا على شرشف الحرير بقعًا لا شكل لها ولا لون وتركني وحدي في الأوتيل.

وغبت أنا،

وغبت في ضباب أزرق:

كنت أدرس في (لندن) لأنّ الأغنياء عندنا يخجلون أن يتعلّم أولادهم في جامعة قريبة من ڤيلاّتهم. وكنت تعيسة في هذا المنفى الصقيعي، المنظّم، الهادئ. وفي صباح أحد الأيّام جاءتني برقيّة تخبرني بوفاة والدتي فدخت وصرخت أشرّح صمت المكتبة:

(ماتت والدتي).

وهربت أغطس في الضباب، أعضّ أصابعي وأشهق، والضباب ينهمر على قدميّ ويتكدّس على الكتفين. البنايات تشتعل بالضباب البنفسجي. والسماء تمطر ضبابًا أزرق، والنهر يفيض ويهدر بالضباب الأحمر، والأرصفة تتقيأ ضبابًا أسود. فتمهّلت أترنّح شقاء، أمدّ يدي أمامي أفتّش عن شيء أتكئ عليه، فسمعت دعسات حذاء تدقّ بعيدًا، بعيدًا، على جدار دنيا الضباب الملوّنة التي أتخبّط فيها فارتكزت عليها، وأغمضت عينيّ، وتلاشيت. ووقع أقدام، يطنّ في رأسي. ثم خرست القدمان، ورفعتني ذراعان قويّتان فهمهمت مستغيثة:

«ماتت والدتي، فكيف؟ كيف سأبقى وحدي؟ أرجوك. أرجوك دلّني على النهر لأسكن في قعره. دعني أتنزّه. أعدك، أعدك بأنّني لن أنتحر. دعني».

وعادت القدمان الجبّارتان تدوّيان، فخفت وبكيت. وفتحت عينيّ على سرير في غرفة فيها مدفأة وأمامي شابّ أسمر من الهند، زميلي في الجامعة. فحملقت فيه أستفسره:

«كيف؟ كيف تجرّأت؟».

فاقترب منّي غاضبًا:

ـ «أنت مجنونة. إذا فقدت إنسانًا واحدًا، ففي العالم ملايين البشر يسعدون بالتعرّف إليك. ثم هم يشاركونك

وحدتك حتى وإن كنت أنت في قارّة وهم في قارّة أخرى. عندنا في الهند ملايين الفقراء يكدحون، العمش في عيونهم والمرض يجترّ شفاههم واللقمة تهرب من دربهم، ومع ذلك يستمرّون. أنت مدلّلة أكثر من اللازم. أنت غنيّة ويصعب عليك، تنذلّ كبرياؤك أن تفقدي شخصًا تملكينه».

وجمت، وهو يدور في الغرفة مرتبكًا. وشهدت، شهدت على جبينه الفسيح شروق شمسنا المحرقة ونعمت بخفقة اطمئنان تسري في ذراعيّ التعبتين، واقترب منّي، اقترب ومسح عينيَّ بكفّيه وتهت أنا في غيمة بخور تهاجر من معبد بوذا، وسبحت في وعاء من الفضّة تنسكب فيه عطور دافئة وهمس على شفتي:

«أنت مجنونة».

فانتحرتُ على صدره.

وفي اليوم التالي سبقني إلى الجامعة، فحزمت حقائبي وعدت إلى بيروت.

أنا أرتجف أيّتها الصديقة، أنا تعبة.

«عايدة»



٤

هجمت ميرا إلى المصعد وأدارت ظهرها للرجل تخفي وجهها في المرآة. فاستقرّت عينا نديم على رقبتها ثم تزحلقتا إلى العظمة النافرة في رقبتها النحيلة وخطر له أن يمدّ يده، أن يقرّب شفتيه يطرد بهما العريَ عن زوايا الكتفين.

وعصر أصابعه ثم سحب الباب الحديدي المشبّك وسألها:

«أيّ طابق؟»:

فظلّت صامتة، يرتعش جسدها الطري بعاصفة بكاء خافت، فتضايق ثم ارتبك ثم غضب، (ماذا يبكيها؟ من يبكيها؟ أيّ رجل؟ وهل عليّ أنا أن أتحمّل شقاء هذه الصبيّة الغريبة التي قفزت من السماء؟ هل عليّ أنا أن أدفع ثمن أخطاء الآخرين؟ من أنا، أستاذ تاريخ يجترّ أخبار الموتى؟).

وتوقّف المصعد في الطابق الثاني.

دنا منها وتحسّس شعرها بحذر ثم غرز أصابعه يلاطف خصلات الشعر المهملة، فارتجفت هي وفتحت فمها لتصرخ فماتت الصرخة على أسنانها وبلعت دمعة ودمعة وتنهّدت بارتياح كحيوان صغير شبع وتدفّأ وتدغدغ.

وأسندها إلى كتفه فأغمضت عينيها وأخرجها من العلبة التي سُمِّرت وردّد على كتفها:

«انقطع التيّار الكهربائي استريحي عندنا ريثما يعود المصعد إلى الحركة».

فغمغمت تشكو بسذاجة:

«أحسّ بدوار ثقيل في ركبتيّ، الغيمة البنفسجيّة تتبعني».

فقهقه ووخز حادّ ينخر راحتيه:

«هل أحملك. لن تمطر اليوم. ماذا، أترعبك الغيوم؟».

فنفرت تبتعد عنه، وتلج بابًا فتحته خادمة عجوز.

وحدها،

انتصبت في الصالون المعتم، وشمعة صغيرة تبصق ضوءًا باهتًا على الحائط البنّي، لتبدّد ارتباكها. فكّرت (أين اختفى الرجل؟ من أين سينطّ وجه المرأة؟ ورائحة الأولاد لا تعبق في هذا السكون الأزرق. اللوحة الزيتيّة مدهشة:

بحر نعسان ومركب عتيق يغبّ المياه بلا مجاذيف، بلا بحّارة، بلا اتّجاه. المقاعد واطئة تلحس السجّادة. أين الشمعة؟ الشمعة وحدها بيضاء والستائر بنّيّة والمقاعد والحيطان وحتى البحر في اللوحة بنّي والمركب والسماء. أفّ، أيّ سمج قطع التيّار الكهربائي في البناية؟ أيّ قذر؟ أيّ شيطان؟).

وتجلّد نديم خلفها، والضوء يتفجّر بين ساقيها ويغمر خصرها ثم يتراجع منحدرًا عن صدرها وشعرها إلى قدميها. ومشى خطوة، ووضعت الخادمة قدحي قهوة على الطاولة الواطئة ثم اختفت. ومشى نديم خطوة ثم خطوة وفكّر (إنّها عصفورة مشرّدة والدنيا تمطر، وأوراق الأشجار تتجمّع في المجارير، ومداخن البيوت جحيم، والسماء تتغطّى بالثلج). ومشى خطوة وفكّر (إنّها طريّة إذا لمست كتفها ستئنّ، لكنّني أريد أن أنفض عن كتفيها كوم الجليد).

تلفّتت فتراجع خطوة وابتدرها:

«تفضّلي».

جلست. وأخذت فنجان قهوة (القهوة مُرّة. وصوت الرجل عميق يخدّر أصابعي. دخان سيجارته يهبط على أجفاني. والشعرات البيضاء على صدغيه غابات أرز تنوء بجبال من البلّور الملوّن).

«هل الآنسة في زيارة..».

«أوه، نسيت أن أخبرك أنّنا جيرانكم الجُدد في الشقّة ١٥، أنا ميرا نادر».

فمدّ لها راحته (إنّها طريّة. طريّة جدًّا، ويدي صدفة تحميها).

اهتزّ قدح القهوة بيدها، حين تفجّرت أنوار الكهرباء حادّة مفرقعة، وردّدت بتعب:

«عاد المصعد إلى الحركة».

وتركته وحده في فيضان الأنوار مع خصلة من شعرها والساق وغصن كلخته الريح. وعربشت إلى بيتها وبينها وبين الغيمة البنفسجيّة: غرفة، لونها بنّي قاتم في زاويتها شمعة تنزّ الدفء، يلطّخ بلاطها صدغا رجل يتلألآن وعيناه تزيحان الغبار.

٥

صديقتي (نانا) تقبّلك. وأتساءل الآن، لو لم تكن عندي (نانا) فكيف، كيف كنت عشت إلى اليوم؟

لا.

لم يفارقني نديم كما استنتجت، إنّما رجع إلى البيت في اليوم التالي. لم ينظر إليَّ مرّة واحدة منذ تلك الليلة. مع أنّه يقبّلني على جبهتي في الأعياد. ومع أنّه يمدّ لي ذراعه المتخشّبة لأتعلّق بها في الحفلات التي يضطر فيها الرجال إلى اصطحاب زوجاتهم. ومع أنّه يطلب منّي أن أقطّب زرّ قميصه، وأصبّ له الويسكي. وأشتري له مجلاّته.

يسكن نديم في غرفة. وأسكن أنا في غرفة ثانية.

إنّه في هذا البيت كسائح عائد من سفر بعيد، بعيد، ينزل في أوتيل يستعدّ لسفر بعيد بعيد. وأنا، أنا صاحبة الأوتيل جذبني إلى هذا المسافر خلوّ المكان من الزبائن وهذا اليَأس في عينيه.

يُرعبني، أنا صاحبة الأوتيل، منذ تمهّل نديم عندي، يرعبني شعور بأنّ هذا الرجل سيتركني يومًا. وأتخيّله الآن... أتخيّله يحمل حقيبته ويرفع ياقة معطفه ويغيب، يضيع في ظلام الشارع. لهذا، لهذا أحتضن (نانا) كلّ ليلة، وأترك الأضواء في البيت مشعشعة وأركع في عتمة غرفتي أُعيد وأُعيد صلاتي. أجل أنا أصلّي من أجله كلّ مساء (أيّها الربّ ساعدني. أيّها الربّ أنا لا أملك إنسانًا غيره على هذه الأرض الكريهة. أيّها الربّ إنّني أحتاج إليه. أحتاج إليه. أحتاج إليه، أتسمعني أيّها الجبّار في السماء؟ أيّها الربّ أرجعه إليّ هذه الليلة فقط، لآنس بوقع أقدامه تضجّ في الممرّ قرب باب غرفتي المقفل، وتتلاشى في غرفته القريبة. يا إلٰهي ساعدني هذه الليلة فقط. فقط. فقط).

يظهر، يظهر أنّ في هذه السماء المتعجرفة إلٰهًا يعطف، لأنّ نديم يعود إليّ كلّ مرّة. يعود مع الشروق. يعود في منتصف الليل. يعود في بداية الليل التالي، يعود مترنّحًا أو مهتاجًا أو أخرس، فأضمّ (نانا) إليّ ونبكي فرحًا. ثم نحاول أن ننام بضع ساعات في النهار لنصلّي في الليل.

ألا تتمنّين مثلي ــ أيّتها الصديقة ــ لو نتف لي الثياب في تلك الليلة. لو علّقني على شريط الكهرباء في الشارع ليبصق الناس عليّ ويشفقون عليه. لو هجرني. لو طردني قبل أن آلفه. قبل أن أعشق خطواته الضائعة في هذا البيت؟

أوه، أنا شقيّة. أنزلق، أنزلق في النسيان، وأحسّ بأنّني سأنفجر قريبًا. قريبًا. قريبًا.

إنّني أهذي أليس كذلك؟ أرجو أن تفهميني فلا تضايقك نرفزتي. إليك هذه المفاجأة الرائعة: نزلت بعد الظهر إلى السوق لشراء ثياب (لنانا). في المحلاّت أشياء مدهشة للأولاد حملت منها الكثير (لنانا). وفي غيبتي، احزري ما حدث في غيبتي؟ احزري؟

زارتنا جارة. أليست هذه خبريّة سارّة؟ قالت الخادمة إنّ الجارة استراحت عندنا حين توقّف المصعد بسبب انقطاع التيّار الكهربائي. فتمنّيت لو لم أبارح المنزل ذلك اليوم، لأشدّ على يد هذه القريبة وأرجوها أن تكرّر زيارتها لنا. لكنّني غضبت لأنّ الخادمة لم تضيّفها من قالب الكاتو الذي أعددته في الصباح. أمّا (نانا) فبدت كملاك مغنّج بقبّعة الموهير البيضاء والحذاء المطرّز بورود من شريط الساتان الملوّن.

ماذا، ألا تعرفين (نانا؟). ما أغباني، ما أغباني كيف لم أقدّمها إليك من قبل؟

بعد عودتي من لندن انتظرت أشهرًا النتيجة، نتيجة انهيار الجدار المقدّس. تمنّيت، واليأس يمزّق أحشائي أن يمنحني الله طفلاً يغنيني عن التعرّف إلى رجل آخر. لكنّ الحطام أيّتها الصديقة لا يخصب، وصرت حزينة. منهارة.

ذليلة. إلى أن كنت مرّة أتمشّى على الشاطئ، والشمس تتغلغل إلى الموج الأبيض. إلى الحصى. إلى الرمال. إلى سطوح البنايات وزجاجها. إلى الطريق. إلى وجنتيّ. وتمنح الخفقة لكلّ كائن، ففتحت عينيّ أغبّ فيهما قرص الشمس، ألملم بهما السماء والبحر والجبال والبيوت حولي والناس، وتساءلت عندها: كيف، كيف نتجرّأ أن نموت أمام روعة هذه الدنيا؟

واكتشفت عندها، اكتشفت أنّني دفعت ما يتوجّب عليّ للزميل الأسمر الذي أنقذ حياتي، دفعت غاليًا؟ الحقيقة أنّني كنت فاقدة الوعي تمامًا، كان الضباب يعميني، وعواء النهر، وصراخ أمّي الميتة. وأعرف، أعرف أنّني بالغت في العطاء، لكنّ الرجال يا صديقتي، الرجال يأخذون دومًا أكثر ممّا يعطون، فكيف إذا منحك الرجل حياة مرّة أخرى؟ لهذا لم أقبل الزواج من الهندي لأنّني شعرت في صباح اليوم التالي أنّه إلٰه هو. وأنا عبدة جبلها بيديه الساحرتين.

المهمّ، أنّني تركت الشاطئ في ذلك النهار، واشتريت دمية تقاسمني وحدتي. (نانا) دمية أيّتها الصديقة. دمية. أسمعت؟ (نانا) دمية. دمية. دمية.

«عايدة»

٦

خلف النافذة، أمام ميرا، بيوت كثيرة وقطعة من السماء وسلسلة جبال باهتة وهواء بارد يضرب عينيها.

ووراءها، أمّها، تتدلّى شلّة الخيطان الملوّنة على كتفها، تطرّز شرشفًا، وترفع عينيها عن الإبرة من حين إلى حين لتغمر صورة الوالد الميت بابتسامة تعبة.

تذكر ميرا أنّها منذ بدأت تعي والأمّ تتجمّع، بعد أن تنتهي من الطبخ وترتيب البيت، تتجمّع على الصوفا تجاه صورة الوالد وتطرّز. (حين أختفي ستظلّ الوالدة تطرّز وستعلّق صورتي بجانب صورة الوالد الكبيرة. وسيبقى هاني مطروحًا على سريره ينجرف مع الألحان الزاعقة تأخذه بعيدًا عن رتابة دنيانا. والبيوت الكثيرة لن تتغيّر ولا الجبال الباهتة ولا قطعة السماء...

تعذّبني هذه الأفكار، تعذّبني، وأودّ أن أُخرس هذا الوجع، أودّ أن أموت).

والتصقت ميرا بحافّة الشبّاك (لا. أنا جبانة. لا أجرؤ على رمي نفسي من الطابق الثالث فأتحطّم على وجه الشارع. أحتاج أنا إلى من يفاجئني بطلقة رصاص واحدة من الخلف تحت كتفي، فيصمت وجعي).

عادت ميرا وتراجعت عن الشبّاك خطوة واحدة (أخاف أن أموت. من أين جاءتني الغيمة البنفسجيّة هذه؟ ما علاقتي أنا بالرجل الذي سقط ميتًا في الشارع؟ ثم لماذا يجب أن أموت أنا أيضًا بالسكتة القلبيّة كوالدي؟ أخاف أن أموت. وأكره الأموات. أكره مظاهرات الزهور في الشوارع تنهمر كأمطار شهر كانون فوق العربات وصناديق الخشب ووجوه المشيّعين الزجاجيّة. أخاف أن أموت، لا أريد أن أموت).

وتساقط صوت الأمّ على ظهرها:

«ميرا. أقفلي النافذة».

فأقفلتها. ودخلت إلى غرفتها. فإذا هاني يتمدّد على سريره يغمض عينيه، وظلّ أجفانه يتطاول على خدّه النافر، والعتمة الهزيلة تغلّف بإعياء الخزانة والكرسي والجوارب وسط الغرفة وفردة حذائه على طرف السرير. وتنساب. تنساب على جبهته صرخات «داليدا» تبضّع جسده فيتلوّى، وأدارت ميرا زرّ النور. فغمغم:

«أطفئي الضوء.. أطفئي الضوء».

وحرّك ذراعه يدير أسطوانة «لألفيس برسلي» ثم عاد ورماه على حافّة السرير. وأطفأت ميرا النور، ونزلت إلى الشارع. (الغيمة البنفسجيّة تتبعني، أين أختبئ؟).

وتمهّلت على مدخل البناية، واستندت إلى الحائط (الغيمة البنفسجيّة تخطر فوق الطريق الأسود، وتنهمر على سطوح السيّارات. أودّ أن أهرب منها).

«هل أستطيع أن أؤدّي لك خدمة؟ هل أوصلك إلى أيّ مكان؟». ورأت ميرا أستاذ التاريخ يكمن في سيّارته. واقتربت دون أن تتمهّل لحظة تفكّر فيها إلى أين هي ذاهبة (أنا ذاهبة إلى ملجأ يحميني من غدر الغيمة البنفسجيّة. كم هو رائع أستاذ الفلسفة!).

وفتح لها باب السيّارة فاستراحت على المقعد بجانبه، ومدّ يده فوق صدرها يغلق الباب (لا تدري هذه الفراشة الزائغة أنّني كنت أنتظرها. وأنّني منذ التقيت بها واختفت أحاول رؤيتها، فتربّصتُ ساعات مشلول اليد قرب التلفون. وساعات كثيرة ممسَّمَّر القدمين أمام باب بيتها وليالي كسيحة الخطى، أرفع سقف غرفتي على جبهتي، وتموج في عينيّ ساقان نديّتان تحلمان بالقفز فوق النجوم لتحطّا في بساتين الكرز.

لا تدري عاصفة الدفء هذه أنّني كنت أفتّش عنها في هذه الأيّام الجافّة: أيّام الثلج في العظام. والنمل في

شرايين القدمين. والتراب في الحَلق. كلّ يوم فيها: أُلقي محاضرة. وأجرع فنجان «إكسبريسو» عند ديبلومات. وأناقش تقارير الطلاّب. وأحضر اجتماعات الأساتذة. وأتغدّى في البيت. وأسكر.

الشرب وحده يمنحني الآن قوّة على متابعة الزحف. لهذا أشرب في الصباح. وعند الظهر. وفي المساء. فيغلّف الشراب الأشياء حولي بأنوار خافتة ملوّنة. ويبدّل في عينيّ الوجوه بسرعة عجيبة. ويزرع في جسدي حرارة تحرقه في وحدته. ويعطيني، يعطيني الشراب الدوخة اللذيذة أجترّها بيدي.. بعينيّ. بقدميّ. بكلّ رأسي وأتسلّى بها.

لا تدري أنّني أحتاج إليها تزلزل حاضري، وتُعيد الخفقان إلى جسدي وتشدّ قدميّ إلى الأرض).

وانطلقت السيّارة على طريق كورنيش المنارة وتعلّقت عيناها بفوانيس بائعي الكستناء، ثم بالمنارة البعيدة، ثم بالبحر: كتلة سوداء معلّقة على درابزين الكورنيش، ثم بدولاب سيّارة بيضاء انطلقت صاخبة في الطريق المبلّل، ثم بجذوع الأشجار. وضجّ في رأسها هدير الموج وتزحلق الدواليب وتنفّس الرجل الرتيب (إنّه متحجّر وعليّ أن أحرّكه) وتوقّفت السيّارة فهدأت الأصوات في رأسها.

«هل تشربين معي قدحًا؟».

لم تتمهّل لتتساءل (قدح ماذا سأشرب؟ ولماذا أشرب معه قدحًا؟ أودّ أن ينشلني من الغيمة البنفسجيّة، ويحميني من أذاها) وهبطت معه بضع درجات تحت الأرض إلى بار فسيح يغصّ بأضواء متنافرة، وتفوح منه رائحة دهان جارحة.

«ماذا تشربين؟؟».

«أناناس».

وسمعته يقهقه مرحًا. وابتعد الكرسون واستقرّ نظرها على جدار حشيشي. تتبعثر عليه مصابيح من الشمع على أشكال حيوانات البحر (هذا أخطبوط يسبح في نور أصفر) انهمر حوله صوت نديم:

ـ من أشهر لم أشرب الويسكي مع امرأة. كانت الأخيرة حسناء متزوّجة، صادفتها في إحدى السهرات، ودعتني لزيارتها في اليوم التالي. وفتحت هي الباب لي. كانت تلفّ جسدها النهم بمنشفة، والرعد يمزّق المدينة. تصوّري، الرعد يمزّق المدينة، وهي تلفّ جسدها بمنشفة، فجذبتها إليّ وأغرقتها بالقُبَل. بالشراب. بالهَمسات. ولم أجرؤ على لمسها بيديّ لأنّني كنت أخاف. أخاف أن يتجرّح جسدها البضّ. الرعد يمزّق المدينة فهممت...

وصرخت هي: «لا. لا». ودفعتني إلى الباب وهي تستغيث «لا. لا».

وأفهمتني أنّها دعتني لأنّها تفتّش عن الحنان. عن الاهتمام عند الرجل، وزوجها طبيب يمضي كلّ وقته في العيادة. وهي تتوق إلى مجالسة رجل في النهار تتحدّث معه عن الطقس، وعن قتلى الفيضانات، وعن المغنّي الإيطالي في الكابيتول. وهي تشتهي لو تنتشل جسدها من ظلمة السرير فيعطيه أيّ رجل قيمة في النهار واعتبارًا بالنظر، بمجرّد النظر إليه.

أكانت تعتقد أنّني لبّيت دعوتها لأبخّر لها الجسد المغرور؟

وتقدّم الكرسون، وانحنى:

«ويسكي للسيّد. لا. عفوًا أناناس للسيّدة. وويسكي للسيّد».

واختفت الجاكيت البيضاء، وانتقل نظر ميرا إلى سمكة زرقاء (صوت الرجل خشبة في أوقيانوس غيوم بنفسجيّة أعوم فوقها).

ـ تضايقني عايدة. وأنا، أنا أمقتها، لقد خذلتني. كنت هاربًا من الألمانيّة لأبدأ معها من جديد حياة هادئة فخذلتني، تصوّري أنّها خذلتني.

كانت الألمانيّة عشيقة صديق تركها لي، وسافر إلى أميركا لاستلام وظيفة في الخارجيّة هناك. فإذا هذه

الشقراء الباهتة بركان شهوة يتأجّج، وإذا أنا في البداية أحاول تخفيف هيجان هذا البركان، يدفعني عناد وزهو سخيف لقهر هذا الثائر الجبّار. وإذا، إذا البركان يزداد هيجانًا وزعيقًا فتركت عملي، ورحت أمضي كلّ وقتي معها في غرفة فخمد البركان فترة ليقوى وأضعف أنا، فحملتها معي إلى الجبل وبين غابات الصنوبر الحالمة وهسهسة المياه خلف الصخور. بين فوح الأزاهير وشدو الحسّون والدوري، اشتدّ لسع جسدها ورحت أنا أنهار... غير أنّني لا أنكر أنّ هذه الشهور كانت أغزر أيّامي بالمطالعة. قرأت كثيرًا، كنت ألتهم الكتب التهامًا. أفادتني كثيرًا هذه العلقة الشقراء في تغذية عقلي ثم في البحث عن غاية لي في الحياة.

وتبلورت كلّ أمانيّ، لأحلم ببيت متواضع وامرأة وفيّة لا تدعو الرجال لزيارتها لأنّني أُرضي كلّ حاجاتها ورغباتها. وصرت أتخيّل نفسي راجعًا إلى البيت في الظهر وفي المساء، أحمل أكياس الفواكه وعلب الشوكولا والألعاب فيهجم أولادي عليّ يختطفون منّي الضحكات والحنان: واحد يرتمي على صدري، واحد يتدلّى على رقبتي، وآخر ينطّ على ظهري. وعايدة تحيك لهم «الكنزات» وتعدّ لنا المائدة وتزرع الألفة في قلوبنا والمحبّة والإيمان. وحرّرتني هذه الأطياف البيضاء الناصعة من كابوس الألمانيّة القاني ولجأت إلى عايدة فخذلتني عايدة. خذلتني.

وتنبّهت ميرا إلى أنّ الصوت قد ضاع، ضاع في مصباح ضفدعة ينزّ ضوءًا أخضر (الآن بيني وبين الغيمة البنفسجيّة غرفة فيها شمعة. وجسد بركان. ومنشفة تنهار عن كتفي زوجة حسناء. أودّ أن أهرب من الغيمة البنفسجيّة).

وجرع قدح ويسكي آخر، ووقف، والصوت جامد على شفتيه المصفرّتين، فوقفت ميرا وصعدت معه الدرجات القليلة، ورأت في مرآة أمامه معطفها الأحمر يستند عليه رجل.

٧

أيّتها الصديقة

أنا لا أقصد تعكير سلام نفسك وهنائها. إنّما، إنّما أنا مضطربة يا صديقتي فاغفري لي، اغفري لي هذه الرسالة. أنا متوتّرة، ففي رأسي تضجّ صور غريبة عن حياة...

احزري عن حياة من؟

تصوّري، عن حياة سيّدتنا العذراء وطفلها المفدّى.

أتخيّل شفيعتنا امرأة ناحلة تتهدّل ثيابها القاتمة على كتفيها ويلفّ شعرها الفاحم وجهها السابح في موجة نور. وتقف المرأة أمام عينيّ تقف، أحاول عبثًا رؤية شفتيها وعينيها وساقيها. وتختفي المرأة لترتمي في عينيّ غرفة من الطين الأسود في وسطها قصعة من الخشب الأحمر، ينبعث من قعرها بخار حساء العدس، وفي البخار تمتدّ يد وتختفي ثم تمتدّ وأرى، أرى هذا الحوار يسيل، يسيل على الجدار الأبيض:

ـ من أين لك الطعام يا مريم؟

ـ من عند الله.

وتهرب الصورة، وتهجم إلى عينيّ غابة أشجار الزيتون. أنا لا ألمح الأرض ولا جذوع الأشجار، إنّما تمتدّ في خاطري بحار خضراء صفراء رماديّة، يحرّكها ليل بلا نجم بلا قمر بلا نسمة بلا ذبابة. ليلٌ عارٍ كطرقات بيروت. وفجأة يتشقّق السواد، ويطلّ شبح أزرق متسلّلاً بحذر إلى كوخ الطين. ثم يهتزّ البحر الأخضر. ويطلع النجم العملاق. ويذوب الشبح على صدر المرأة الناحلة ويتكوّر بطنها ويكبر...

ويقلقني حوار يتدلّى على جسر الخشب في سقف الكوخ:

ـ ممّن تحملين يا مريم؟

ـ من الله. من الروح القدس.

هنا،

هنا يتصبّب العرق من أظافري، وأنا ألحق هذا المشهد:

الحامل تركض حافية بين الصخور، وصولجان ملك حقير يلاحقها. المرأة تركض. تركض. وتلهث. وسلّط عليها الطاغي الأنهر لتغرق الطفل. العواصف لتمزّق الطفل. البراكين لتُحرق الطفل. والمرأة تركض.

تلهث... ومدّت يدها تتمسّك بصخرة، فإذا الحجارة، يا صديقتي، أكوام تبن ناعمة. وإذا الأرض مغارة هائلة. وإذا الحيوانات ساجدة: خروف. وبقرة. وحمار. ودجاجة. وتفجّر صوت في جوانب السماء:

ـ ماذا ولدت يا مريم؟

ـ ولدت ابن الله، ملك الملوك.

وحين يتمهّل دوران هذه الصور في بياض عينيّ أتساءل:

إذا حملت عندنا اليوم امرأة من روح القدس، أتعتقدين أنّ الناس يصدّقون؟

أرجوك. أتوسّل إليك أن تجيبي على هذا التساؤل الذي ينخرني. وأحرقي للأمّ الجليلة البخور معي، وأضيئي الشموع البيضاء للمخلّص. فأنا الآن أتوغّل في الطرقات أراقب الحيوانات علّني أصادفها ساجدة فأتمنّى،

أتمنّى أن يولد في هذا البيت العاقر، ومن هذا الجسد البشع، أن يولد طفل، ولا يهمّني إن كان من روح الآلهة أو الشياطين.

أمقت أنا، أمقت هذا المطر الرتيب في الخارج، ولولا أجفان (نانا) الشمعيّة تجرف عن فمي الصقيع والوحشة لحطّمت منفضة السجاير والمزهريّة، أقطّع نواح السماء: هذه البومة العجوز.

تستفسرينني عن نديم؟

أوه يا صديقتي، كنت أودّ ألاّ أتحدّث عنه الآن. لا بأس. نديم يحيّرني في هذه الأيّام، فهو يأوي كلّ مساء ما بين الساعة الثامنة والتاسعة فيطلب فنجان قهوة. لا، لا، يطلب ركوة قهوة. وينكبّ على كتابة أبحاثه التاريخيّة، التي حدّثني عنها قبل أن نتزوّج وأظنّه أهملها طوال هذه السنوات. ويتسم لي ساهيًا. لهذا تضاءلت صلاتي وصلاة (نانا) وكثرت ساعات نومنا. وازداد هو بعدًا عنّي. إلى اللقاء يا عزيزتي.

«عايدة»

٨

صامت بجانبها.

وتتعلّق ميرا بالأشياء حولها: السيّارة تلفّ أكواع طرقات الجبل. والأشجار تدور. والبيوت تختفي ثم تطلّ. والتراب الأسود يصبغ القرميد الأحمر المبلّل. وإذا الوديان في عينيها مهاوٍ تطفح بالمازوت. والبيوت توابيت هرمة. والجبال مثلّثات من الكرتون المزوزق، فأغمضت عينيها، ورمت رأسها على ظهر المقعد وتنفّست ضيقًا وانهمر صوت نديم في أذنيها مع انسكاب مطر سبح على الزجاج:

ـ أتلمّس الراحة هنا، بين القمم الشامخة البيضاء، وفي عبير المسك المتفجّر من الصخور الصغيرة. في نفحات الطيب المسافرة من السهول والحدائق والجداول، وفي نغم يتلوّى على أنامل راعية سمراء، فيتراقص ويهتزّ شعاع الأمل في الفضاء البعيد.

وأنحني أنا للمبدع الجبّار ساجدًا، لحظة تطلّ نجمة. لحظة يهمس النسيم ويبوح للرياحين والبراعم. لحظة تبكي السماء فرحًا تغسل بدموعها قلوبنا والتراب والبحر.

عرفت الحبّ لأوّل مرّة هنا، في الطبيعة الحنون المعطاء، في هذا المحراب الذي يغسل عن وجوهنا وخواطرنا الزيف ويكتم لنا الأسرار ويرفق بالآهات.

لا، لم تكن من مزّقت رسالتي الأولى هي حبّي الأوّل:

كانت هذه اللعينة بنت الجيران. متكبّرة مغنّجة، توزّع ابتساماتها الشرّيرة غزيرة على أترابي، وتبخل عليّ بالتفاتة سريعة ناشفة. فرسمت لها بالمداد الأخضر على ورق مزهّر كلّ شوقي وكلّ عذابي وكلّ حرماني. فانفجرت المغرورة في وجه صديق حمل لها الرسالة تشتمه، ومزّقت الوريقات اليانعة، وداست عليها بحذائها وحمّلته لي كلّ السخرية والكره والخيبة، فاتّكأت على جرحي، وسعيت للقاء ملاكي الذي أضعته فيما بعد:

كان شعرها شلاّل نور يهطل على كتفين كأنّهما ربوتان في زهو الربيع. وخدّاها زهرتا لوز. وعنقها سماء تنتظر الشروق. كانت باختصار، كانت نغمات الأرض كلّها في تسبيحة تمجّد العزّة الإلٰهيّة وجبروتها. ورماها القدر في بداية طريقي، فجمعتنا الصدف في بيت زميل لي في الجامعة، والتقت نظراتنا وانحبكت، وارتعشت قلوبنا

واصطبغت وجناتنا. ويوم تركت بيت خالتها في بيروت لتعود إلى صيدا كدت أجنّ، واكتشفت أنّني وقعت في هواها.

كقافلة تائهة في الصحراء تتلمّس طريقًا صحيحًا يجمعها ببئر تركد في قعرها حفنة ماء. كنت أعجّل بإتمام كلّ أعمالي خلال الأسبوع، وأسرع إلى صيدا فأجدها تنتظرني في البساتين ممدودة الذراعين ضاحكة العينين. فأقفز فوق التصوينة، وأضمّها إليّ، وأمدّدها بجانبي تحت أشجار الليمون الوارفة، نلوّن المستقبل ونطرّزه، ثم نقفز فوق الأعشاب كالحملان. ونتناول طعامنا قرب ضفّة الماء. وفي المساء نستأجر عربة حنطور يجرّها حصان، وتنام على ركبتي وأنشر صدري فوقها، أحميها من شعاعات القمر الناعسة، من أنفاس النسيمات الهادئة، من تمتمات الموج للحصى الولهان. لن أنسى حادثًا وقع لنا. كان ذلك بعد الحرب الأخيرة، كان العربجي يداعب ظهر الفرس بسوطه الحنون، وحوافر الفرس توقّع لحنًا عذبًا يتسلّل إلى آذاننا فيخدّر الحواسّ. وكان الليل في أبهى حلله، يغمر الشاطئ بثوبه ويلفّ الأشجار بالغموض، ويمنح البحر رونق الأسرار، ويترك الأنجم تنطّ في قلبه من زاوية إلى زاوية كحوريّات لعوب. الليل وملاكي كانا معي، والساحل الفسيح يتمطّى أمامنا. وغفا الحوذي وسهونا نحن عن الوجود... وفجأة، انهار السكون حولي، وانتصبت بين

وجهي ووجهها بندقيّة سنغالي من جيش الانتداب، وزأر بصوت يهزّ أرجاء الليل: «قفوا. قفوا قفوا!».

فجفل الحصان. وبكى العربجي يندب حظّ أولاده اليتامى بعده. واحتضنت أمل أقيها رصاصة هذا المشاغب. وبعد لحظات عانقت فيها أرواحنا الموت، قهقه الأسود هازئًا: «ألا تعرفون أنّكم في منطقة عسكريّة على مدخل مدينة صور؟ ألا تعرفون أنّكم سكارى بالحبّ وكاد الحبّ يرسلكم الآن، لولا فضولي بالتعرّف إلى وجوهكم، كاد يوصلكم إلى الشيطان؟». وشكرته، وأخبرته أنّنا كنّا فوق المسافة وفوق الزمن وأبعد، أبعد من النهاية.

لكنّ أمل تركتني أيضًا.

أجبروها على الزواج من ثريّ حملها معه إلى أفريقيا، ولم أستطع إنقاذها، أنا الطالب الجامعي، الذي ينام بدون عشاء ويدخّن سجاير التاطلي.

لن أنسى كيف فتحت علبة بريدي، ووجدت في قعرها ظرفًا يتمدّد، وكيف انتشلت منه بطاقة مغمّسة بالنبيذ الأحمر وشفتين ودمعة. وكيف دارت الأرض بي وأنا أقرأ الدعوة لزفافها. ثم كيف أقفلت باب غرفتي أيّامًا طويلة أحرق الدخان وأعبّ الويسكي.

غدرتني، أليس كذلك؟

لا لم تغدرني، لقد أجبروها على تركي، وأنا، أنا لا أقوى على الاحتفاظ بها.

اسمعي النهاية معها،

سافرتُ إلى نيويورك للتخصّص. التقيت بها في حفلة سفارتنا هناك، فبدت لي حوريّة تهبط من السماء على ذراع نجم، تشقّ الأضواء الوهّاجة وأغصان الورود وموجات العطر. فأحسست بخدر ونشوة ورجفة. وهممت أن أركض. أن ألتقطها. أن أخبّئها تحت قميصي وأعود هاربًا بها. وتنبّهت، ونظرت إليها مترفّعًا، وهي تتّجه صوبي وزوجها خلفها يحميها بعينيه، ومدّت يدها وظلّت يدي جامدة، وغرّدت تحيّتها تغريدًا، فهززت لها رأسي واحتضنت إحدى الصبايا وتركتها صفراء ترتعد كزنبقة في عاصفة رمل.

وانخطف صوته. وتعلّق وحده على أذنها صوت انسكاب المطر على الزجاج، ففتحت عينيها ورأت:

رأت يده تترك المقود، ثم تتّجه صوبها، ثم تهبط فوق ركبتها وتحطّ على يدها، على ظهر يدها. يده صقعة، ويدها تلتهب. الصقيع يذوب ليتكدّس على قدميه، وتضايقت يده تهزّ يدها الخرساء. ثم غضبت يده وعادت إلى المقود.

٩

أيّتها الصديقة،

لولا مطرقة عامل يغرز المسامير في قالب خشبي على سطح عمارة مجاورة، لولا دويّ ضرباته الحادّة في عينيّ لما تمكّنت من الكتابة إليك.

أتكئ أنا على الضجيج يسري، يسري في ساقيّ فيشلّهما ويربطني الآن في غرفتي.

أجل، أجل أيّتها الصديقة، بدأت أنفر من هذا البيت. وأزوغ في بيروت تائهة، أفتّش عن حيوان ساجد لأتمنّى طفلاً، علّ سيّدتك العذراء المقدّسة وطفلها الإله يستجيبان. أرجوك أن تضيئي لها وللطفل الحبيب شمعة هذا المساء، فأنا عاجزة عن إتمام أيّ عمل.

في بيتي،

شبح امرأة تجرّ نديم إليها. فيفتح بابه باكرًا في المساء.

ويتمهّل لحظة على العتبة. ويمدّ رأسه يتبسّم في الممرّ. ثم يتنفّس بارتياح. وينقل قدميه مطمئنًّا إلى المطبخ يغمره بنظرة حنان. ثم يستلقي على مقعد في الصالون ويشعل سيجارة يمتصّها على مهل.

ثم تتعلّق عيناه بالسقف، وترتعش رموشه كأنّما هو يتلقّى بها سيل قبلات ناعمة. ويعصر قبضة يده. ثم يفتح زرّ قميصه، ويفرك رقبته كأنّما هو يقرّب إليه، لا، كأنّما هو يخبّئ في صدره إنسانًا آخر انتشله من عاصفة مجنونة ليجفّف له الثياب بأنفاسه، ويرفع له سقفًا بين ذقنه وكتفه ليحميه.

وعلى المائدة ـ نديم يتناول وجباته الثلاث الآن في البيت ـ يجلس قبالتي ويرفع الصحن، يرفعه... فأنتفض، وأتوجّع، وأنا أراقب يده تنحرف... تنحرف... وتضع الصحن بعيدًا، بعيدًا، عنّي.

إنّه يراها خلفي. أو أمامي. ويتبسّم أحيانًا لي، أو يربّت على كتفي. أو يلفّ خصري بذراعه. وتسقط دومًا ابتسامته على حذائه قبل أن تصل إليّ. وتلمس أصابعه الفراغ الذي يعشقه. وتلفّ ذراعه الفضاء.

يعني هذا أنّ امرأة خطرة بيني وبينه. أتخيّلها فتيّة رعناء تصدّ رغباته وتقاوم عناده. وعميقة، عميقة كالبحار تَسَعُ كلّ هفواته.

لم أعد أطيق هذا البيت. أصبحت غريبة فيه، وهي؟ هي في الصحن. في المنفضة. في قدح الماء. في الماء. في السقف في اللّمبة. في الشرشف. في المخدّة. إنّها على كتفي أنا، وعلى خصري، وعلى يدي. إنّها تغلي في دم نديم وتفور. لكنّني أنقذت (نانا) من تسلّطها، فلم أتح لنديم رؤية (نانا) أو لمسها.

ماذا تقترحين؟ أطردها؟

كسرت الصحون القديمة والأقداح. وأحرقت شرشف المائدة والفوط. واشتريت أغطية للمقاعد. وغيّرت دهان الحيطان، فكانت تعود في المساء، تعود مع نديم أكثر اعتزازًا واستقرارًا.

أن نحارب شيئًا ملموسًا بطولة، أمّا أن نحارب خيالاً فذلّ وعجز. وهكذا صمّمت على ترك البيت لها، وصرت أحمل (نانا) بكيس من النيلون وأمشي على الرصيف. وأدخل المخازن. وأتناول القهوة في المقهى. ولا آوي إلاّ حين يرهقني المشي والتعب.

صباح اليوم، كنت في «الباتيسيري سويس» أنزوي خلف طاولة تطلّ على الطريق الضيّق. وتدفّقت شمس شباط الحادّة من سطح كنيسة الكبّوشيّة وغمرت الطريق وتسلّلت إلى طاولتي، فأسلمت لها وجهي تمسح عنه عفونة أيّام ماضية كريهة ابتلعها مطر أسود وصقيع.

وفي الشمس،

تنّهت إلى حركة الآخرين حولي: أشخاص يدخلون إلى الباتيسيري أو يغادرون، وكلّهم يرمون نظرة فضول على معطفي الفرو وعقدي الماس، ونظرة أخرى على (نانا) المستلقية على الرخام الأبيض. ويحملون معهم استتاجًا هيّنًا: امرأة ثريّة همّها في الحياة أن تشتري لعبًا لأولادها، وأولاد الآخرين يعوون جوعًا وبردًا. أمّا الذين ينزلقون على الرصيف فكانوا يتلفّتون ويتفحّصون وجهي، ثم يهملونني مبتعدين. فخطر لي أن ألمس كتف أحدهم ومددت يدي، مددتها...

أتعرفين ماذا اكتشفت؟

اكتشفت أنّهم، وفي احتكاك كتفي بكتفهم، أنّهم بعيدون. بعيدون. أحتاج إلى يد، ويد، ويد... إلى ملايين الأيدي لألمسهم. وقمت بالتجربة، فاغمضت عينيّ والشمس تهرب منّي، وتخيّلت أنّ يدي تتعلّق بملايين الأيدي وتمتدّ.. تمتدّ لتناغي شعر هذا الطفل الذي يتعلّق بتنّورة أمّه، وما كادت الأيدي تصل حتى... حتى انفرطت وتبعثرت. لماذا؟

لأنّه كانت تنقصني يد واحدة.

فعدت وتخيّلت أنّني حصلت على اليد اللازمة، وانشبكت هذه مع ملايين الأيدي، وامتدّت سلسلة اللحم،

وانطلقت لتشدّ على يد هذا العجوز... فتفكّكت وضاعت
لماذا؟

لأنّه كانت تنقصني أيضًا يد أخرى.

هكذا. إنّهم بعيدون عنّي بعيدون، بيني وبينهم دائمًا
مسافة يد ناقصة.

وحتى (نانا) يا صديقتي، حتى (نانا) رفضت أن ترضع،
فظلّت شفتاها مطبقتين وحلمة ثديي ترتجف. فأضيئي للأمّ
والطفل الممجّدين شمعة. أنا ضائعة ومطرقة عامل البناء
بدأت تمزّق أعصابي. أنا ضائعة فلا تنسي أن تضيئي
الشمعة.

«عايدة»

١٠

أوقف نديم السيّارة في زاروب وسخ. وتبعته ميرا إلى واجهة زجاجيّة يتكوّم الوحل على عتبتها وقصاصات جرائد مبلّلة وقشور ليمون. وضغط على زرّ في الحائط الأجرد، فقفز إلى صندوق الزجاج كلب ضخم ونبح بفجور ثم تربّص ساكنًا، وحكّ أنفه بأرض الواجهة الخشبيّة وتفحّص وجه نديم فاطمأنّ، ودار يزيح ستارًا من الحرير الأبيض أكله العثّ.

وفتح الباب. فهلّل نديم «مرحبًا ديمتري. كيف حالك ديمتري؟».

وأقفل الرجل المدخل بالمفتاح. وخطا أمامهما في قاعة فسيحة وهو يتلفّت إلى وجه نديم مغتبطًا ثم إليها حذرًا متشكّكًا. وتوارى الأصلع. وردّد نديم:

«هذا أجمل بار ومطعم في البلد. هذا المكان دافئ وهادئ!».

ودبدب في ساقيها خوف ناعم، ومشى الامتعاض إلى عينيها وهي تنقلهما بين السقف المطروش بالكلس، وقناطر الرخام الممرّة. ورسوم النساء العاريات على الجدران، وكلمات فرنسيّة مرسومة بالدهان الأبيض والأحمر والأسود. وصينيّة شاسعة من النحاس الأحمر، ينطفئ فيها نور باهت ترسله لمبة صغيرة عارية تموج في فضاء القاعة الرطبة. ومنافذ واطئة تتفتّح على زوايا مجهولة.

وانبعث صوت نديم كدليل ذكي لبق في قلعةٍ هَرمة. وهي مسافرة، مسافرة في الغبار:

ـ هذا هو وكر سعادتي مع الألمانيّة.

ومشت ميرا متهيّبة، واخترقت مثله منفذًا إلى غرفة ضيّقة تزنّر جوانبها الأربعة مدودٌ خشبيّة صُفّفت عليها طراريح بلون النبيذ ورُكّزت أمامها أربع طاولات فقط، كلّ طاولة في زاوية. الطاولات عتيقة، خشبها منخور بلا دهان.

ـ كلّ عشيّة، كانت تتعلّق بذراعي ونترك غرفتنا لنندفع إلى هذا الوكر الحالم ننعم بالراحة. كانت بثوبها الأبيض ـ وكانت لا تلبس غير الثياب البيضاء في العشايا المحرقة أو الثلجيّة ـ كانت بثوبها الأبيض المنحسر عن عنق كالمنارة في خليج بلاد مجهولة. كانت جبل ثلج يحترق في بحر شراب العنب.

ثم لحقته إلى غرفة ثانية، ينبطح في صدرها ديوان يتدلّى منه على الأرض شرشف أخضر، وعلى جانبه يرتفع حاجز بنّيّ من الخشب رُكّزت عليه قنانٍ منوّعة الحجم والألوان. والرجل الأشقر الأصلع يتربّص خلف الحاجز كهرّ ينعم بالحرارة يراقب فنجان حليب يشمّ رائحته، ويتهيّأ ليثبّ عليه.

وتبعته إلى الباب الوحيد. باب قزم هو شبكة ألواح صغيرة دُقّت بمسامير غليظة، وجمدت تدهشها حديقة تزدحم فيها الأشجار. كانت تنتظر خلف الباب: قبوًا أو بئرًا. أو دهليزًا. أو شاطئًا. أو أيّة أعجوبة أخرى، بدل أشجار في بقعة تزدحم بالسكّان والملاهي والحافلات والسيّارات.

وضاع نديم بين الأغصان. وجرجرت قدميها إلى البركة، فصدمت عينيها صورة قمر شباط يلتصق بالمياه الراكدة كعلبة من التنك أُفرغ منها المربّى اللذيذ ورُميت في برميل الزبالة.

ثم عادت معه إلى البار، فنطّ أمامها كرسون شابّ تفور وجنتاه وتغزل عيناه، وانحنى. فأسرع «ديمتري» من أحد المنافذ وشدّ الكرسون يأمره بالاختفاء وحمل طاسة فضّيّة قدّمها لنديم فرحًا:

«تحنّ أنت إلى «فودكا» ديمتري أيّها الثعلب. أجبني.

هل تعود لنا مباهج الماضي؟ هل نزهر بعد، وتُشرق أحاسينا، وترقص نشوى ليالينا؟

بماذا أنعش سيّدتي؟ أوه. لا. لا يمكن أن نشرب القهوة عند ديمتري. عند ديمتري غيبوبة اللّذّة تتفجّر من حوافّ الأقداح الطريّة. ما رأي سيّدتي الفاتنة بقدح بيرة. إنّ سيّدتي فاتنة ومتوحّشة».

وغمز ديمتري نديم. ثم قهقه وحده. وفرك يديه الصغيرتين. وفوّر لها البيرة في القدح فرشفت الرغوة بنهم. ومدّت يدها ترفع يد نديم عن ركبتها وتدفنها في راحتها، تطرد رعبًا ارتمى على وجهها من الرسوم العارية. من أرض الباتون الصفراء. من لحن «الدانوب الأزرق» يحفر شقوقًا ملوّنة على وجه نديم. من سترة هذا الهرّ المخمليّة الحمراء الفاقعة. ورفع يده يشعل سيجارة. وبدل أن تعود يده لحمايتها تكرسحت على حافّة الديوان الخشبيّة، فعضّت شفتيها وأغرقت، بالبيرة، صرخاتها الفجّة. بينما تعالى... صوت نديم الحالم:

ـ في الصيف الماضي، كنت يائسًا، فقصدت علبة ليليّة أنزع فيها الصدأ عن شفتيّ. وما حامت حولي الفاتنات يفيض لحمهنّ على الثياب الزاهية، حتى انقبضت واختبأت في زاوية أمتصّ وحدي الويسكي من فوهة القنّينة. لا أدري كيف اختطفت منّي صبيّة حسناء القنّينة واستراحت قربي

وراحت تعبّ الشراب ساهية. ثم أعادتها لي وتبسّمت بألم:

«خانني «ألبرتو» وتزوّج «روزا». خمس سنوات أفنيتها في حبّه وبناء الأحلام وتركني. ترك «ماريّا». ماريّا يعني أنا. تركني وتزوّج روزا لأنّها تحمل دوطة. ومع أنّني في سنّ الخامسة عشرة بدأت عملي بائعة في نوفوتيه لم أتمكّن من جمع دوطة. لماذا؟ لأنّ ماريّا تصرف على البيت. ماريّا، مريول الصغير اهترأ. ماريّا. أختك مريضة، أحضري الطبيب واشتري الدواء. ماريّا، حذاء أمّك لم يعد يليق لحضور القدّاس. ماريّا. ماريّا، والدك تخاصم مع رئيس العمل في مصنع النسيج فأحضري معك الخضار في المساء. هكذا، كنت أربّي أولاد الآخرين وروزا تحتضن طفلها من ألبرتو. أكرهه. أكره ألبرتو. ونابولي. كرهت الكلّ هناك، وخطر لي أن أهجرهم. وراقت لي الفكرة، وأنا أغلّف للسوّاح تذكارات حلوة يأخذونها معهم إلى بلادهم، إلى أحبّائهم. فالتحقت بفرقة استعراضات تجوب العالم. وحملت حقيبة ثيابي وتسلّلت من البيت في الظلام. أنا مشتاقة إليهم، إلى أختي الصغيرة «برونا». كانت الصغيرة برونا تحبّني ولا ترضى أن يمشّطها أحد غيري. ستكون امرأة رائعة، إنّها تشبهني. ألست جميلة أنا؟ أودّ أن أعود إليهم. هل تأخذ ماريّا إلى البيت أيّها الغريب؟ قل إنّك ستأخذني».

وتعلّقت برقبتي وبكت. فحملتها إلى ديمتري. وفتحت لها زجاجة شمبانيا فتقيّأت. وعبست تؤنّبني: «بثمن هذه الأوهام كنت أشتري في نابولي خبزًا. وجوارب. وقميصًا لأخي. ودواء». وبعد أن غسلت رأسها بالماء البارد تعشّينا ودعتني إلى غرفتها في الأوتيل نُمضي ساعة أو ساعتين بقيتا من الليل. وأبى مدير الأوتيل أن يدخلني. وازدادت رغبتي في ضمّها، في حمايتها. والرجل يزداد إصرارًا وأنا أحاول أن أقنعه بمبلغ من المال. رفض. وهاجت هي غضبانة ورفض. وتعلّقت بي تقبّل جبيني. وعنقي. ويديّ وتغمغم: «وداعًا أيّها الحبيب العابر. أنا مسافرة غدًا مع الفرقة إلى إيران». وتسلّقت الدرجات حافية. وأنا مسمّر على الطريق أعصر حذاءها المعطّر.

ودعكت أصابعه الشرشف الأخضر، ثم نفرت شرايين كفّه الزرقاء وانتفضت، فتسلّلت يد ميرا إليها تخفّف قساوة الذكرى فيها ورأت:

رأت وجهه ينحني، مغمض العينين، وحامت شفتاه حول وجهها ثم غفتا على شفتيها، ثم انتفض يأمرها غاضبًا:

«يجب أن تعودي إلى البيت. أنت صغيرة جدًّا. يجب أن تأوي باكرًا إلى الفراش. هيّا».

عند منعطف طريق بيتها تركها تدبدب على الرصيف القزم. وغاب هو في حنايا المدينة.

١١

تقترب شجرة التين كبريتيّة اللون مشعشعة، تقترب من فم السيّارة، وغابة الصنوبر بين برمّانا وضهور الشوير ترتجّ وتتوارى خلفها. والمطر يشتدّ. وضباب خفيف ينحدر من القمم، ويتجمّع على الطريق المهجور. والحفر تغصّ بالمياه البنّيّة وفتات أوراق الشجر.

هذا العويل الخافت المتسرّب إلى ميرا من التراب اللّزج والصخور البارزة والقرميد الذي يضيع في العتمة، هذا النواح البطيء يكاد يخنقها. ونديم يدفش السيّارة ساهيًا وعروق يديه تتنفّس على مهل تسبح، في الممرّات اللحميّة بينها، ذرّات مياه تدخل من الشبّاك المفتوح على يساره. وقام سدّ من الضباب الأسود يموج أمام زجاج السيّارة وينهزم، فارتدّت نظرات ميرا والانقباض يخنقها لتحتمي بيد نديم. يد نديم مخبأ تقاوم بلمسها، بشدّها، هذا الحزن الطفل الذي وُلد، الآن، اللحظة، على جبهتها.

فإذا يده مغلقة تشخر في غفوتها، استحالت في عينيها نارجيلة امّحت زركشتها ونشف الماء في قعرها وخمدت نارها. فغطّت وجهها بيديها وعضّت أصابعها. ورأت يده تمسح الزجاج أمامها بلمسات ناعمة، وودّت لو تصرخ. لو تصرخ. تصرخ. فصرخ هو:

ـ شجرة التين ما أروعها! إنّها حديقة مقدّسة في قلب هذه الأرض الخراب. كلّ ورقة فيها، كلّ ورقة صفراء. لا، كلّ ورقة ذهبيّة. لا، لا، كلّ ورقة قمر في اكتماله يتدلّى على غصن. والأغصان، ما هي الأغصان؟ كلّ غصن سماء مكوكبة.

وترك السيّارة في حفرة. وشقّق في عينيها سدّ الضباب اللّبني وغاب. فتفجّر الغضب في قدميها وسال الرعب من المقاعد. وفكّرت أن تضغط على الزمّور تجرّح بعوائه السماء التي نزلت إلى البحر، والبحر الذي ضاع في السماء. والأرض التي تطفو فوقهما. لكنّها تركت السيّارة وركضت تبحث عنه. وغطست في الوحل، وانتشلت قدمًا بدون حذاء يسيل الدم منها، وأنقذت فردة الحذاء الأخرى تتعكّز عليها فوق الحجارة، تتبع نديم. ونديم كتلة سوداء تقفز على التلّة باتّجاه شجرة التين.

وارتمى على الشجرة يحتضن جذعها الدبق والمياه تتجمّع في أوراقها اليابسة المقرقطة وتنصبّ على رأسه

وكتفيه. وهي، هي مشلوحة كالكلبة الجرباء، كالحذاء المهترئ الضائع في الوحل. عليه ببساطة، عليه أن يبعد أصابعه قليلاً عن الجذع فيلمس خصلات شعرها التي تمطر سوادًا وزعيقًا أبكم.

ولمع أمامها، خلف الضباب، ضوء بعيد ودبدبت شجاعة في عينيها، ورأت ضوءًا آخر. وضوءًا آخر. واستنتجت أنّه لا يزال في هذا العالم بشر يمقتون مثلها السكون، وكبرت الأضواء وزهت بيروت تغلي بالحياة، ووعت أنّها الآن في الجبل في نزهة مع نديم لنديم، وأنّها هي تسكن العاصمة، وأنّها تعشق شوارع المدينة الصغيرة، وبناياتها الضخمة المنتصبة قرب بيوت عتيقة من طابق واحد. وأنّها تحبّ كلّ البيوت التي لم تدخلها. والدكاكين. وأبواب السينما الزجاجيّة. وتحبّ زحمة السيّارات ورنرنة الترام. وتحبّ أسطوانات هاني الجارحة. وعملاء شركة التأمين التي تعمل فيها. وتودّ أن تهرب لتضيع بين الناس في بيروت وتشمّ رائحتهم وتحتضن الإسفلت.

وارتفعت ميرا في الغيوم البيضاء الوسخة. ونزعت من شجرة التين قضيبًا انتشلت به حذاءها من كومة الوحل. وانحنت ترفع براحتيها الحجارة، والمطر يتغلغل إلى صدرها يوزّع الغضب على شفتيها المزرقّتين.

وانحدر وراءها.

في المسافة بين الجبل وبيروت انهمك هو في تنشيف رأسه وكتفيه وركبتيه وحذائه بمنديل طري أبيض، ثم طرح المنديل في جارور السيّارة حين وصل إلى باب بار جديد في بناية لم يعلّقوا لها بعد الشبابيك. وكانت هي تغفو مهملة بثيابها الرطبة وشعرها المتلصق بوجنتيها والطين العالق على قدميها. وراقبته وهو يسبقها إلى الباب الصغير ثم كيف انحنى. كيف توارى الباب خلف قامته. كيف تدفّق الضوء الأحمر إلى الشارع الأسود اللمّاع ليُفرحه.

وامتراح نديم على كرسي أمام الفتاة الشقراء، صاحبة البار. وهرع الكرسون يساعد ميرا على خلع معطفها وسمعته يطلب لأوّل مرّة قدح «مارتيني» وصمت دون أن يطلب لها شيئًا. وتسلّقت كرسيًّا بجانبه وأخذت سيجارة من علبته ظلّت خامدة بين إصبعيها، وقدّم هو للشقراء سيجارة ووقف ليشعلها لها، ثم أطفأ القدّاحة ورماها بعيدًا عنها، فركض الكرسون مقطّبًا يولع لها النار في رأس السيجارة. ونفخت الدخان في السقف بين صفّ من ألواح الخشب المخرّمة، رُكّزت في الحائط، وامتدّت في الفضاء إلى منتصف العلبة ينساب فوقها ضوء أحمر لطّخ صفّ القناني المصفوفة على رفّ خشبي خلف الشقراء. وظهر، خلف الدخان الحريري، وجه شابّ أصفر مخضرّ، يكمن

في زاوية البار يراقب وجه نديم الزائغ على رقبة الشقراء العارية، على خصرها الضامر، على عينيها الراحلتين فوق سفينة من العطر الأخضر والرمادي. ودار الشابّ حول البار وأمسك يدي الشقراء يدغدغهما. وأسرع الكرسون يدير أسطوانات هائجة. وهجر نديم كرسيّه وصعد درجات قليلة إلى مقعد حوصر بصفّين من الألواح الخشبيّة المخرّمة. وتنبّهت الشقراء إلى ميرا، فاعتذرت:

«يا إلهي ثيابك مبلّلة. يجب أن تخلعيها الآن. هيّا اتبعيني». وتبعتها ميرا إلى الحمّام فنشرت لها الثياب على شبكة التدفئة، ولفّتها بمعطفها وقدّمت لها قدحًا من النبيذ الأحمر، وتكوّمت ميرا في زاوية المقعد الأخرى.

وغاصت في راحة دافئة، وفي الدفء ضاعت ابتسامة الشقراء. وعينا الشابّ البرّاقتان. ووجه الكرسون، هذا النمرود الصغير. وأتاها صوت نديم بلون النبيذ هذه المرّة:

ـ أظنّ أنّني أعرف هذه الشقراء. صادفتها في نيويورك. لا، ليست هي ذاتها إنّما تشبهها كأنّها هي. كانت راقصة من النمسا في أحد مسارح شارع ٥٢ ـ أحببتها. لا لم أحبّها: عبدتها. فقد كنت أنتظرها حتى تقدّم دورها، وكان الوجوم يذبح رغبات المتفرّجين على جسدها الناري وهو يرفض الثياب، وهو يتعرّى.

كنت أنام معها في فراش واحد، ولم أجرؤ على

لمسها. كان جمالها مغلّفًا بالجلال حتى لينكمش أيّ رجل أمامه ويتلعثم ويطلب العفّة والغفران.

وجاء يوم سئمت فيه العبادة، فتركتها. والتي جاءت بعدها كانت يونانيّة لها خطيب ينتظرها على الشاطئ الآخر. عشت معها ستّة أشهر في غرفتي وودّعتها في يوم على المطار بقبلة، وحمّلتها سلامًا لخطيبها وأمنيات حارّة.

والمهمّ في الحكاية أنّني زرت نيويورك في الشتاء الماضي، وقصدت شارع ٥٢ أفتّش عن ذكرياتي. ودرت ساعات في الشارع، أين المسرح الشهير؟ لا، لا يمكن أن يكونوا قد هدموه ليرفعوا ناطحة السحاب هذه؟ لا يمكن. لا يمكن. وتصوّرتها،

تصوّرتها تتلوّى بين رماح موسيقى الجاز المنسلخة من الأبواق النحاسيّة. وعيون الغلمان المستعرة تتساقط على أصابع قدميها الطريّة، فتحرقها. وألسنة العجائز تتكوّم على كروشهم المنتفخة، وتطلق همدرة خشنة كدقّ طبول زنوج في قبيلة متوحّشة. وتحتال هي على الألحان والنظرات والأنفاس تنحّيها عنها، وتفلت منها، والعرق يتصبّب من ثدييها شرابًا سحريًّا يخدّر الأيدي، ثم يتجمّع العرق ويسيل على الحيطان ويرتفع فوق الأرجل ويغمر الرؤوس. والرؤوس تدور والعرق يتدفّق من ثدييها ومن عيون

الرجال. . . وتتفجّر الأرض وتتداعى الحيطان ويهبط السقف على الرؤوس الصلعاء، يفرغ منها نماذج من مسكرات. ثم يلاطف السقف الرؤوس الطفلة الساهية تحت شعرها الغزير، ويستحثّ فيها الخيالات المعربدة.

ولبثت ساعة مذهولاً، في الشارع ٥٢ ـ في نيويورك ثم قهقهت لخيبتي، وأدرت ظهري لناطحة السحاب.

ورأته ميرا يغبّ قدح ويسكي رابعًا، ويدفن وجهه في رقبتها (في فتحة معطف الشقراء) فأبعدته عنها برفق. وقامت لتلبس ثيابها وتحمل معها إلى البيت كمدًا ووجومًا.

١٢

صديقتي

الديك ملحّ على باب غرفتي. الديك أرعن. الديك يكاد يحطّم الباب، ويشقّق زجاج نافذتي، فانتفضت مذعورة أحتضن (نانا) أقيها شرّ اليد الغضبى. ورفعت الأغطية فوق رأسي ورأسها حين تأكّدت أنّني لا أحلم وأنّ الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل.

أين نديم يحميني ويحمي (نانا؟).

وتتابعت الضربات على الباب، وتعالت، وقرّبت (نانا) أكثر وأكثر إلى صدري ثمّ خفّ الضجيج، وإذا اليد تلامس الباب بنعومة، وما أتاني صوت نديم يخشّ كأوراق الكرمة في عاصفة جليّة، حتى رميت (نانا) على المخدّة، ونططت عن السرير وفتحت الباب فتساقط بين ذراعيّ وهو يستغيث:

«حبيبتي أنت، لا تتركيني لا تتركيني». فجننت به.

وبلهفة. بظمأ. بمجاعة مزمنة، قبّلت أذنه وشعره وجبهته وذقنه وبقايا رموشه، فتعلّق بخصري:

«لا تتركيني. لا تتركيني».

وتراخى على ذراعيّ يتنفّس ببطء كطفل مريض.

كنت قد حُرمت من رفع طفل على ذراعيّ. والآن، فأنا أحمل لأوّل مرّة طفلي الكبير، أغلى طفل في العالم.

الرجال، يا صديقتي أطفال مدهشون في سكرهم. في يأسهم. وفي غبطتهم. وهذا مثل قديم، قديم. لكنّ المهمّ أن نجرّب نحن هذه الحكم المهترئة لنقتنع بصوابها.

ودخلت غرفتي، أسنده إلى صدري، تتدلّى يده اليسرى على ظهري وأضأت النور فغمغم:

«النور يجرح عينيّ. لا. لا. لا تتركيني».

فقهقهت ومدّدته على سريري المنزوي في العتمة، فتقلّب حائرًا، ثم نام على وجهه بعد أن قذف (نانا) عن المخدّة إلى الأرض. فشهقت وانحنيت أرفعها، ووضعت يدي على فمها، وأنا أخاف. أخاف أن تصيح متألّمة فتزعج نديم وتنفّره. وهدهدتها بعجلة، ونوّمتها في الخزانة.

ثم،

على سريري أنا، في جسدي أنا،

شهدت أغرب تمثيليّة حبّ برع نديم في تأديتها مع اسم. أتسمعيني مع مَنْ؟ مع اسم ينتهي بحرف (ر) الراء. بدأ بترديده ثم باستلطافه. ثم بالهذيان به. ثم بتخديره. بوعده. يجذبه إليه. بالاحتماء به. بالغرق فيه، بالضياع، بالانتشاء، ثم بالغفو الهنيء.

وإذا أنا،

أنا متفرّجة في دار أوبرا ملكيّة، والقاعة تعجّ بالنظّارة، فتتبعثر الأصوات على رؤوسهم وستائر المخمل النبيذيّة، والقاعة تتمطّى، والمسرح يقترب منّي. يقترب. وعبثًا، عبثًا أحاول فهم الأسماء، هذا الاسم فقط.

وفي النهاية،

انفجرتُ، وصرخت غاضبة:

«من هي؟ من هي؟».

فكفّ عن مداعبة الاسم:

«عشرون سنة وأنا أبحث عنك، عشرون سنة، عشرون سنة أفنيتها وتتركينني». ومدّ كفّيه الفارغتين في فضاء الغرفة، ثم شبكهما على صدره، وأدار لي ظهره، وغطس في نوم ثقيل.

وتركته في الغرفة، وارتميت على مقعد في الصالون، أنفث غيمات سيجارتي على زجاج النافذة. غيمات بلون الفجر وهو يحتلّ المدينة النائمة. لا أدري لماذا؟ لا أدري أيّتها الصديقة لماذا تجسّمت أمامي سيّدتنا العذراء الجليلة.

رأيتها تنام على فراش من القشّ، تتدثّر بجلد خروف صوفه طويل أبيض. وفتيل النوّاصة يذوي. والبقرة وعجلها قرب المعلف يحرّكان فكّيهما، ويقف العجل ويدور حول أمّه، ثم يهدأ.

وهبّت عاصفة خلعت باب غرفة الطين، وعلى بساط وهّاج، يمسك بكلّ طرف منه ملاك من نور له أجنحة كثيرة على شكل دوائر مشتعلة، يتربّع عليه رجل في إصبعه خاتم كبير من الزمرّد والياقوت والفضّة والذهب والعقيق. واصفرّت العذراء الوحيدة وارتجفت وهمّت لتستغيث، فانحنى الرجل العظيم. القدير. الجبّار. الرحيم. فوقها، وسكب النور حولها ونفخ في كيانها من روحه. واختفى البساط بلمحة.

وظلّت المرأة، وحيدة، في غرفة الطين مع العجل والبقرة.

وفي الصباح،

لم ينظر إليّ نديم، ولم يكلّمني. كان الهمّ يجثم على جبهته والارتباك في يديه. ولم يأكل في البيت. وفي الأيّام

الأخيرة، أعتقد أنّه كان يعيش على الويسكي والتبغ والقهوة.

أمّا أنا؟

أنا الآن المرأة الأخرى، أيّتها الصديقة، أنا المرأة الأخرى.

حينًا أحسّ أنّني سمراء نحيلة الساقين والعنق، فاشتريت ثيابًا هادئة الألوان فاتحة، وأحذية عالية مقطّعة. وبعد حين، شعرت أنّني شقراء ممتلئة يصرخ صدرها ضيقًا يطلب الحرّيَّة والانفلات، فرحت أرتدي ثيابًا سوداء وملوّنة غامقة تترك كلّها للصدر حرّيّته. وأحيانًا كثيرة، صرت أتعذّب، فأفقد لوني. أوصافي. . . وأضيع، وتفلت منّي صورتي الحقيقيّة وصورة المرأة الأخرى. والآن أنا أمقت النهارات المشمسة، ويضايقني تفتُّح الورود على الشرفات وفي محلاّت بيع الأزهار والحدائق الصغيرة القليلة.

أنا المرأة الأخرى، يا صديقتي، أنا المرأة الأخرى.

لكن، يعزّيني أنّ هذه المرأة تتمنّى. لا. لا تتمنّى فقط. إنّها تصرّ وتلحّ وتنادي بأن تثمر تلك الليلة. أن تثمر.

«عايدة»

١٣

دفنت ميرا وجهها بين الطراريح الخضراء والصفراء والحمراء والزرقاء (إنّه يوقظ على شفتيّ الرجل الآخر).

وتحرّكت يد رجا في فضاء الغرفة الوردي الساخن الذي يغصّ بصوت مغنٍّ مبحوح، يتفجّر من أسطوانة تدوخ في الزاوية. وانزلقت يده على ظهرها، وحطّت اليد القاسية على خصرها، ثم تلاعبت الأنامل الجليديّة بفتحة فستانها عند الرقبة، وتسلّلت إلى ظهرها كأسراب ذباب تركت لتوّها قعر صحن دبس خرّوب.

وعضّت يدها تقطّع رجفة صقعة سرت في أصابع قدميها وصرخت:

«رجا. رجا. اتّفقنا على ألاّ تلمسني».

وارتفعت يده في الفضاء الشاحب المحبوس بين جدران غرفته المدهون بالحشيشي والرمادي. ولملمت جسدها بإعياء وجمعته كتلة ممتعضة، وأحنت رأسها تشمشم عقد

زهرات الفتنة الغافي على صدرها، فجثا رجا أمامها وصوّب ذراعه إلى عنقها، ثم امتدّت يده وانقضّت على الزهرات الناصعة، وفرفكتها بشماتة، ثم اقتلعتها اليد المجرمة، وتركت حول عنقها الموجوع خيطًا يتدلّى، تمنّت ميرا لو كان حبلاً تُشنق به، فترتاح. وزمجر:

«لا أفهم. لا أفهم كيف تقبلين منّي عقد الفتنة. وكيف تزحفين معي إلى غرفتي وتمانعين... تمانعين.

منذ عرفتك، منذ أسبوع، وأنا أتعذّب. لا أفهم».

وارتفع أمامها، وابتعد خطوات ليبدّل الأسطوانة، ثم مشى صوبها، وعصف الغضب في كعب حذائها فخلعته، ورشقت به الأسطوانة الجديدة العاوية، ومرمغتْ بقايا الزهرات البيضاء المصفرّة بقدمها العارية وأجابته:

«لأنّ عقد الفتنة يميّزني عن الكلبة. والهرّة. والبقرة.. عن أيّ أنثى من الحيوان، لهذا أنا أتقبّله. ثم أنا في غرفتك لأنّك اضطررت إلى التأخر في عملك فاقترحت أنت أن أنتظرك هنا، أستمع إلى موسيقاك الحلوة بدل أن أضجر وحدي في السيّارة، فتستحمّ حضرتك وتبدّل ثيابك. أنا في غرفتك لأنّني لا أخاف منك، لا أخاف أبدًا أن تبتلعني، أفهمت؟».

لاحت في عينيه الفسيحتين ظلال دهشة، اختفت لتعود فتتمركز في عينيه الرغبة الفجّة أكثر هيجانًا وتحدّيًا. وهزّها

يغرز شراسته في كتفها:

«لماذا جمعتنا الصدف إن كنت...».

فانفجرت بضحكة عصبيّة تقاطعه:

«أنت ساذج، ليست للصدف أيّة لعبة في أن نلتقي: كنت أغفو على الرمل كعادتي منذ أسبوعين...».

وأسرع يكمل هو:

«وتزحلقت الشمس الحادّة عن مظلّتك، وانصبّت على لحم ظهرك وساقيك تشويه. وكنت أراقبك، كنت أشمّ روائح الشواء والمستحمّون يطنطنون حولك كالبرغش، يدفشك أحدهم بقدمه ويقذفك آخر بحصاة، فأسرعت وغطّيت ظهرك بمنشفتي».

بصوت هادئ متقطّع بعيد، شرحت ميرا:

«كنت فحمة تحترق بإهمال، فشعرت بانتعاش حين رميت منشفتك. وغلّفني الأمان بذراعيه. وحلمت أنّ البحر يعلو فيغمر الشاطئ والمدينة والجبال، وأنا على المنشفة أتمخطر فوق سطح المياه أراقب في قعرها الجبال والأشجار والبيوت.

من زمان، لاحقتني الغيمة البنفسجيّة فاشتهيت أن أُربط بجنزير حديد وأُرمى في أغوار البحار، أختبئ بين جبال الإسفنج في المغارات الملتوية.

والآن أنا أودّ أن أحتفظ بكَ تُنقذني من هبوب الغيمة البنفسجيّة وهجومها عليّ».

لانت نظراته فتطلّعت إلى عينيه تضيع في مخبأ شمس وارف، وحفحفت خدّيها بذراعيه المنيعتين فانحدرتا إلى كتفيها، ثم إلى خصرها وجذبها إليه بلطف وهمهم:

«أنت تهذين. ما معنى الغيمة البنفسجيّة؟».

ورمت رأسها على صدره العاري ومرمغت شفتيها برقبته، فغمرها وغمره فيض حنان وهمست مستغيثة:

«رجا لا تقسُ عليّ. أرجوك ألاّ تقسو عليّ».

فشدّها إليه وأمرها:

«وأنت لا تعطيني سببًا أضيّعك به».

ثم انتفض مستدركًا:

«كيف تقبّلينني أنت ولا تسمحين لي أنا بتقبيلك؟ لا أفهم. لا أفهمك. أكاد أجنّ. لا أطلب منك أكثر من قبلة».

وأبعدها عن نبع الحنوّ، فأحنت ظهرها ذلاً وتشرّدًا والتقطت فردة حذائها، فغرز أصابعه في شعرها وجذبها إليه وانقضّ على فمها فالتصقت بصدره، ثم تملّصت من قبضته وشهقت باكية، فرفعها على راحتيه ووشوشها خائفًا:

«لا تبكي. لن أغضبك مرّة أخرى».

ولحوس القطرات الساخنة عن وجنتيها وذقنها ومدّدها بحذر على المقعد الوثير وهي لا زالت مطبقة الأجفان تسبح في عتمة شقراء، وضحك يخفي ارتباكه:

«هيّا رتّبي شعرك بينما أستحمّ، سنتعشّى عند «جيمي» أنت قطّة شرسة».

ورفع خصلاتها الفاحمة عن جبهتها وغمغم:

«شعرك رائع».

واخترق ممرًّا صغيرًا، ودخل الحمّام.

وتاهت ميرا فجأة في سكون شفّاف: خرست الأسطوانة. وتململت الستائر المنهمرة على كلّ الجدار من الزاوية إلى الزاوية. وزاغت ألوانها الخضراء والصفراء في عينيها. وحملق في صدرها كرسي أحمر. وغمزها قدح تنام فيه بضع قطرات ويسكي. فنقل رأسها، وتلفّتت وجلة تتساءل: (هل أنا حقًّا في غرفة شابّ التقيت به منذ أسبوع فقط؟ هل أنا أحضر فيلمًا سينمائيًا؟ أم أحلم؟ أم ماذا؟).

وتسرّب صوت تزحلق مياه «الدوش» إلى رقبتها: (المياه تنسكب على رقبتي. المياه ترطّب ثيابي. المياه ترشح من قدميّ. المياه تفترش البلاط. المياه تعلو. المياه تغرق الطاولة والقدح والكرسي. المياه. المياه...).

وهربتْ إلى الممرّ، وردّدت بصوت خافت: «رجا. رجا».

واستندت على حافّة باب الحمّام، فجاءها صوته خافتًا كأنّه اجتاز موانئ كثيرة:

«حبيبتي».

فغرقت أكثر وأكثر في ارتباكها. وقرّبت أذنها من الباب.

«حبيبتي بعد العشاء سنحضر فيلم الروكسي».

فأجابت بغضب:

«لن أذهب إلى السينما الساعة التاسعة ليلاً، نهاري لي. أمّا ليلي فهو للآخرين».

فضحك وسألها:

«حبيبتي، مَنْ يَعدّ لك الدقائق بعد الغروب؟».

فغمغمت: «النيّام».

فعجّلَ يستوضحها: «من؟ من؟».

وتساقطتْ عن حافّة الباب إلى العتبة، وتكوّمت على البلاط تشرح:

«في الثامنة والنصف من كلّ مساء، تنطفئ الأضواء وتموت الحركة في البيت الخامل، وتظلّ صورة والدي

جاثمة على الجدار في الصالون. في غرف النوم. في المطبخ. وفي الحمّام».

وتمهّلت تستفسر:

«رجا هل يظهر عليّ أنّني.. أنّ والدي ميت؟».

جمد لحظة، ثم ازدادت لهجته طراوة وهو يسألها بدوره يحاول جرف الكآبة عن جبهتها:

«وهل يظهر عليّ أنا أنّ والدي حيّ يبلعط في الحياة؟».

«رجا. قُلت إنّك تسكن وحدك في شارع وأهلك في شارع آخر في مدينة واحدة، لأنّك لا يمكن أن تنسجم مع والدك، الذي يأبى إلاّ أن يحشر أنفه وكلّ رأسه في مشاكلك...».

فقاطعها يشرح:

«دومًا، دومًا ينهرني:

لماذا تلبس كرافات حمراء. لماذا تأكل بعجلة. لمن تلفن. مشاويرك مع أصحابك المخاليع لا أسمح بها. لا تحملق في وجهي، احترمني، اخرس في حضرتي.

لا، لم تكن تمرّ لي معه هنيهة واحدة دون أن تنشف الدماء في عروق والدتي ويستمرّ نحيبها. وقاسيت في الجامعة وصارعت حتى تشقّقت عيناي، وتخرّجت في

الســنة الماضيــة، وتوظّفت مهندسًا في إحدى الشركات، واستأجرت هذه الشقّة فريّحته منّي وارتحت».

وفتح باب الحمّام واستند على حافّته يكمل:

«لا، لن أنسى ذاك المساء،

التففنا حول المائدة نزدرد طعامنا بصمت، والوالد يربض كعادته عابسًا على رأس الطاولة، يرشقنا بنظرات حادّة مؤنّبة. وحامت الوالدة بيننا توزّع الابتسامات وتناغي رؤوسنا وتربّت على أكتافنا مشجّعة. وكدنا نصل إلى مرحلة الملل من جلوسنا أصنامًا متقزّزة تفرغ في أجوافها الأكل. الملل فقط كان يعدنا في كلّ مرّة عن المائدة، ولا أذكر أنّني شبعت مرّة واحدة عندما كنت أتناول الطعام معه، مع والدي.

ورفعت الوالدة الملعقة إلى فمها، فأمرها:

«ناوليني الملح».

فانفجر الغضب على لساني: المملحة قريبة منه بعيدة عنها، يكفي فقط أن يكلّف نفسه مشقّة تحريك ذراعه ومدّها لالتقاطها. ولحوست غضبي أخزّنه في كلّ حلقي. وأغمضت عينيّ والوالدة تروح وتجيء خلفي لتنفّذ أوامر سيّدها.

وانسحبت إلى غرفة الجلوس أغلي نقمة وألمًا وتمرّدًا، فلحقني وأمرني بسخرية:

«هيّا ناولني حذائي. إنّه هناك تحت المقعد. لا أدري لماذا يلد الآباء الأطفال. أنت تكرهني، هيه. أنت تكرهني أيّها القرد».

حملت رأسي براحتي، ومزّقت شفتيّ بأسناني، وهاجت على ذراعيّ رغبة قاسية في الضغط على عنقه وإبادة صوته إلى الأبد.

وصرخت:

«لا. أنا لا أكرهك. بلى أنا أكرهك. ابتعد عنّي وإلاّ قتلتك. قتلتك..».

فزمجر مرتبكًا، ثم دهشًا، ثم مستنكرًا:

«أيّها المجرم».

واقترب منّي، فتملّصت من ضربته، وولولت والدتي وأبعده الإخوة، وفتحت الباب، وتهت في صقيع الليل من شارع إلى شارع ألهث، لماذا؟ لماذا يريدني عدوًّا له؟».

وسرى الاصفرار في وجه رجا ويديه. وبهدوء تابع:

«ميرا لا يمكنني أبدًا أن أجرؤ على إيذائه. وأذبح أنا أيّ إنسان يخدشه. لكنّني لن أسكت على ظلم يصبّه شخص على شخص آخر».

ولتمسح عن خاطره ظلال المساء الرهيبة اندفعت تهاجمه:

«أنت، ولأنّك رجل يُسمح لك أن تدير ظهرك لكلّ ما يضايقك. ولأنّني امرأة يُفرض عليّ أن أبلع صوتي، أن أخرس، مع أنّني أعرق مثلك. أضجر. أتعذّب.

ثم أنت تجابه لحمًا ودمًا، فتمزّق هذا اللحم إذا أردت، وتمتصّ هذا الدم. أو تتجاهله ببساطة، وتدير ظهرك، وتتوغّل في طريق آخر. وكيف يمكنني أنا أن أتخلّص من سلطة أب ميت لم أره يومًا.

رجا. والدي صور شاسعة تنتصب على الحيطان في الصالون. في غرف النوم. في المطبخ. وحتى في الحمّام. ومن فوق عرشه: من جوف الأطر المذهّبة والفضّيّة والسوداء يبحلق فينا. ويزجرنا. ويهدّد. وينفّذ العقوبات. كنت إذا كسرت صحنًا أو شددت ذنب الهرّة أو لعبت مع الصبيان بالفوتبول، تجرّني الوالدة إليه، وترميني على الأرض راكعة أمامه، وتستغيثه بلين ودلال لتكسبه ضدّي معها: «أرأيتها كيف خالفت وصاياك وشاكستني؟ بماذا نقاصصها؟» وكنت أتوسّل إليه بعينيّ أن يسامح. أن يرحم. وإذا هذا الطاغي، في كلّ مرّة، يوحي للوالدة بحرماني من الفاكهة والزّرب يوم الأحد على الشرفة، يبكيني انفلات الأولاد على الطريق مع آبائهم يمرحون.

هو اختار لأخي دراسة الحقوق، ولم يمانع في أن يلتحق هاني بوظيفة حكوميّة. وهو سمح لميرا بالعمل في

إحدى شركات التأمين. وهو يرفض الضجيج في الليل ويعشق السكون والتأمّل، فعلينا إذن سحق الأضواء بعد العشاء. وعلينا أن نتوارى في الأسرّة، نحكي له عن كلّ ما حدث لنا في النهار، ونبوح بكلّ أمانينا. ثم ننام».

وفتحت عينيها فإذا رجا ينحني فوقها يتقطّر الارتباك من جبهته وأسنانه، وانتشلها عن العتبة وتمتم في شعرها:

«أنت طفلتي».

فقهقهت بألم:

«أنتَ أروع أب في الثامنة والعشرين لطفلة في الثانية والعشرين».

ثم انتفضت تستدرك:

«أشكرك، عندي تخمة من الآباء. لو لم يكن ميتًا لتمنّيت له أن يموت».

فسحبها خلفه إلى السيّارة. وشدّ يدها يخاف عليها أن تتعثّر، أن تهرب.

١٤

«رجا، تستفهمني لِمَ الانقباض على فمي والحزن في يدي، أنت تعرف أنّني أبغض الجبل، وأنّني أتقزّز من هذا الضباب يرتفع في الوادي!».

«لكنّ «الحاوي» أصخب مكان في ضهور الشوير، والأوركسترا لطيفة مسلّية. وكلّ ما أقصده هو أن نمسح عرق بيروت وغبارها عن ألسنتنا، ونلتقي بالأصحاب ونرقص ونضحك».

«أنت تتعمّد إيذائي؟ أنت تتعمّد إيذائي».

«اسمعي. قولي إنّ هناك رجلاً آخر تهربين منه. تقاومينه. تحاولين القضاء عليه في القبلات وفي الجبل. وأنا أتعذّب. هل تسمعينني؟ يعذّبني هذا الرجل ويلاحقني في عملي وفي نومي وفي كلّ مكان. أنا أحاول أن أقتله فيك لأرتاح منه. حبيبتي ميرا هل هناك رجل آخر؟».

«نعم. هناك رجل آخر لكنّني انتهيت منه».

«انتهيت. أنا أراهن أنّك لا زلت تحبّينه».

«أيّها الغبيّ، لم أحبّه يومًا. أحبّه؟ لا. كنت أحتاج إليه. وكان يلزمني في ساعات معيّنة من النهار، في فترة محصورة قُبيل اختفاء الشمس وانتشار العتمة: وقت تمرّ الغيمة البنفسجيّة فوق رأسي. لا أدري الآن كيف بدأت معه. دعاني مرّة ليوصلني في سيّارته إلى باب إدريس. ثم لشرب قدح قهوة. ثم لنزهة في الجبل. والمهمّ من كلّ هذا أنّني اكتشفت فيه عالمًا جديدًا أتوارى فيه بعيدًا، بعيدًا عن الغيمة البنفسجيّة».

«هل عدنا إلى هذا الوهم السخيف. «الغيمة البنفسجيّة؟». هذه حجّة لا تقنعني تبرّرين بها تعلّقك بالرجل. بهذا الكريه».

«رجا. أنا أمنعكَ من الإساءة لرجل بعمر أبيك».

«أكنت تحبّين عجوزًا قذرًا؟».

«رجا. أرجوك أن تسكت فأنا كنت أحتاج إليه فقط. وأظنّه هو أيضًا كان يحتاج إليّ، لأنّني كما استنتجت فيما بعد، كنت أجسّم عشرين سنة مزهرة. ناضرة. من صباه».

«وأنت. كنت تستعيدين به ذكرى شيخوختك: رأسك الأبيض. وأحفادك. والفالج الذي رماك في السرير. والمرحوم الذي خانك فسبقك إلى القبر».

«غيرتك السخيفة تزعجني. وأنا لا أخجل من أيّ عمل قمت به وأيّ إنسان عرفته. كان منفيًّا عنّي، منفيًّا. كنت في قعر منجم أنادي، أنشر ساعديّ أزيح بهما سيل التراب عن فمي وعينيّ. ومن ثقب قزم، كنت أراه هو نقطة سوداء على سطح المنجم أصمّ أبْكَم مكرسحًا يغازل النجوم والزهرات والجداول».

«هذا العجوز القذر».

«لم أتنبّه إلى أنّه عجوز أو شابّ. قبيح أو جميل. كان هو في قارّة وأنا في قارّة، ولأصل إليه كنت أنتظر سفينة بيضاء فخمة تطلّ من الأفق المهجور. على شاطئ قارّي حيث أنتظر، سرب نساء عائدات من ميناء قارّته هو. واحدة تئنّ. واحدة تغنّي. واحدة تنغل كالحيّة. واحدة تصلّي. واحدة تقتلع الحشيش اللّزج تدعك به قدميها. واحدة تستحمّ. وواحدة تُحيك شبكة لصيد السمك».

«العجوز القذر».

«متى ستكفّ عن ترديد هذه اللعنة؟».

«العجوز القذر».

«كفى. كفى. كفى».

«العجوز القذر. العجوز القذر. العجوز القذر».

«أجل، هو عجوز.

اكتشفت ذلك حين دعاني للغداء معه لأوّل مرّة. ولأوّل مرّة رأيته في النهار، في بهرجة ضوء الشمس وفورانه.

كانت الشمس تتدفّق على زجاج مطعم «الإيدن روك» فتجرّحه. كانت الزاوية الغربيّة في المطعم التي اختارها صحراء موحشة تختزن حرارة الشمس. كان الشاطئ الممتدّ خلف ظهره، خلف الزجاج، خلف تلال الزبالة من علب التنك الصدئة والحجارة والقناني المكسّرة وصناديق الخشب المنتنة، كان البحر. كان الرمل. وكانت «الكابينات» كلّ هذه كانت مذعورة تستسلم في جمودها لقساوة الشمس.

وتساقطت شعاعاتها على وجنتيّ. على شعري. على صدري. على قدميّ. واستلذّيت بالدوخة الناعمة تداعب يدي وفمي. وتبسّمت أرفع عينيّ إلى وجهه... لا. لا يمكن أن يكون هذا الرجل هو. لا.

جبهته حقل خنادق محفورة بالتجاعيد. صدغاه ضيّقان يخفيهما شعر أبيض خشن، كحقل مزروع بالذرة البيضاء في موسم سمح. عيناه، عيناه صغيرتان جفّت المياه في قعرهما، وتعشّق فيهما الوحل. ويداه مرعبتان كلّ يد كمشة عظام رماديّة عليها لطخ سوداء غُلّفت بجلد أيبسه الثلج والغبار. والحزن. والأمل. والأحلام. والخذلان.

شهقت،

وغطّيت وجهي براحتيّ، أطرد عنه الشمس الوقحة السافرة. أبعد عنه صورته الملموسة الحقيقيّة الواضحة. أطرد استنتاجًا سريعًا لمصير هذا الرجل: بعد سنة. سنتين. ثلاث. خمس سنوات... ويرحل مع الغيمة البنفسجيّة، ويتركني أنتظر عودتها لتأخذني. لا يمكن أن أرافقه. لا لست شجاعة لدرجة أعيش فيها مع إنسان يذوي ببطء ولهو وصمت. لا، أعجز أنا، أعجز.

وطلب هو من الكرسون أن يحمّص له الخبز.

وشهقت مرّة أخرى: يحافظ على قوامه، ويصارع الترهّل وهو يابس.

وسألني: «لماذا لا تأكلين؟» وأجبته أنّني لست جائعة. وانفجرت باكية. بكيت في صحن (الشاتوبريان) ولم يتوقّف هو عن تقطيع اللّحم وسفّ الخبز وجرْع النبيذ الأحمر. لم يسألني لماذا أبكي. لم يطلب منّي أو يأمرني أن أكفّ عن البكاء. لم يقدّم لي منديله...».

«العجوز القذر».

«وحام سرب ذباب فوق المائدة، راح يكشّه باهتمام. ولم أعد أنظر إليه. وأمرته أن ينزلني في طريق قريب من البيت، لأنّني كنت أودّ أن أنفّذ موقفًا اتّخذته: أن أهرب منه. وصرت أركض في الطريق، والمارّة يتسمّرون مشدوهين يراقبونني أركض. مرّة واحدة تلفتُّ لأتأكّد من

أنّه لا يلحقني. وعدت أركض. على السلّم ركضت. واندفعت إلى البيت وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح».

«تحنّين إذن للعجوز القذر، وترفضين أن يقبّلك رجل شابّ».

«رجا. أنت مجرم. لم تكن هناك علاقة جسديّة، أو رغبة، أو تمنٍّ. إنّما كنت أحتاج إليه، وكما قلت لك، كان صوته يحيي حتى الغيمة البنفسجيّة. واكتشفت بعد أيّام، وبعد أن طبشْت التلفون في وجهه، اكتشفت وتحقّقت إلى أيّ مدى هو ضروري لي كإنسان. مع أنّني لم أرغب أبدًا في أن يشتري لي حذاء أو فستانًا أو رغيفًا. ومع أنّني لم أناقش حتى كونه متزوّجًا، ويمكن أن يطلّق زوجته...».

«ماذا عجوز قذر له زوجة أيضًا؟ ميرا أنت مجنونة».

«رجا. أنت لا تفهمني».

«لا يهمّني أن أفهمك. أنا أحبّك. وأعتقد أنّ هذا ما تحتاجين إليه».

«رجا. كنت تعيسة قبل أن ألقاك. كنت يائسة. كنت مهسترة. كنت أسدّ كلّ منفذ للضوء إلى بيتنا، وأنتصب في زاوية الغرفة أضرب رأسي بالجدار. كنت خائفة وحدي.

وهاني. كان هاني دومًا معي يستلقي على سريره، ويُدير

الأسطوانات، وغيمة كآبة تحوم على جبينه.

والأمّ. تحسّست الأمّ أنّني في مأزق، فراحت تتمهّل أمام الصورة في غرفتنا. في الصالون. في المطبخ تخاطب الوالد: «أتذكر يا حبيبي كيف؟».

«أتذكر. يوم نضجت الثمار في جسدي، وفاح عطر أزاهيري، وانشقّ كلّ برعم عن حزم خضراء تمدّ ظلالها فوق الأرض وعلى السماء، يومها بكيت من الفرح وخطر طيفك أمامي، فأسرعت أحمي لك البستان فسيّجته بحيطان بيت أبي.

أتذكر. في بيت أبي تعلّمت الطبخ، والغسيل، وتربية الأطفال، والتطريز، وأصول الاستقبالات، تعلّمت كيف أكون زوجة صالحة. ولن أنسى عصر ذلك اليوم. كيف طُرق باب بيت أبي. كيف أطلّت والدتك، فشممت فيها رائحتك وسمعت صوتك أنت، وهي تطلب أن أصبح أمًّا لأولادك.

وهكذا كان، كان أن أصبحت أمًّا لميرا وهاني. ولم أعرف رجلاً قبلك يا حبيبي ولا رجلاً بعدك. فالفتاة التي تطمح للزواج، وأشدّد على كلمة يجب، يجب ألاّ تعرف رجلاً غير زوجها».

«أتذكر، أتذكر. أتذكر...».

وهكذا كانت تعيد هذه النغمة في الصباح قبل أن أذهب إلى عملي. عند الظهر. في المساء. إلى أن حفظتها وحفظها هاني. وما تلفظ هي: أتذكر؟ حين تغيب عنّي وتلتحم الصورة بأثاث البيت وتدور كلّها في دوّامة بطيئة تتلاعب برأسي، فأفتح الباب وأنزل إلى الشارع. رجا. اهترأت أعصابي، اهترأت فحصلت على إجازة شهر. ونفعني ارتمائي في الشمس. في الملوحة. في حبّات الرمل. وفي الإهمال».

«هل أنت في إجازة؟».

«رجا. عدنا إلى اللعب. أجل أنا في إجازة. كيف أكون في راحة وقد تعرّفت إليك؟».

«كفاك ثرثرة. أترقصين؟ عازف البيانو يذبّل لك عينيه أتعرفينه. امنحيه سعادة، ارقصي على ألحانه. هيّا».

وضاعا بين الراقصين.

١٥

أنا حبلى،

أنا حبلى، يا صديقتي، أنا حبلى. غنّي معي. انثري الورود على الأسرّة. أطلقي الأنغام في أرجاء البيت. أقيمي أفخر المآدب للمهنّئين الأحبّاء عندك. حيّكوا للطفل ثياب الصوف الزرقاء والزهر، فهو قادم في الشتاء. والشتاء يصبّ أذاه، غضبه، قساوته، على الأطفال فكيف، كيف لن يزعقوا إذا رعدت؟ كيف لن ينتفضوا إذا برقت؟ كيف لن يتقلّصوا، يخنقهم السعال والحمّى إذا طاب للصقيع السكن في لحمهم الطريّ، الوضّاء، المهفهف؟

أرتبك الآن، حين أفكّر بأنّني سأعرّي طفلي في مغطه المعطّر وأفرك جلده الوردي بإسفنجة حريريّة، ربّما أوجعته. ربّما... لا. أنا لا أملك شجاعة تمنحني سعادة الاعتناء به في أيّامه الأولى. كما أنّني قلقة من احتمال جفاف الحليب في ثدييّ. وأسمع، أسمع أنّ أكثر الأمّهات

لا يرضعن أطفالهنّ. وأنا أريد أن يمتصّ صغيري كلّ ذرّة حياة منّي أنا. أريد أن يذوب جسدي كلّه: عظامي. لحمي. جلدي. شراييني، وتتحوّل إلى سائل أبيض فاتر يسمّن طفلي.

أنا حبلى.

أنا حبلى بشعري. بعينيّ. بيديّ. بساقيّ. برموشي. بأظافري أنا حبلى. وأخبرت نديم فارتعد وغرّز نظراته في بطني وعصر يديه واسودّت جبهته وانحنى ظهره قليلاً قليلاً، وعضّ شفته السفلى الزرقاء، وفتح الباب وزحف في انحداره إلى الشارع، وترك الباب مفتوحًا. وغاب أسبوعًا.

فهمت ماذا يصفعه: الطفل لها. إنّه للمرأة الأخرى. وأنا. أنا انتزعته منها، وكان باسمها يهذي، وكان جسدها يشمّ وكان يقصد سريرها، ومع هذا حملت أنا.

لا تهمّني كلّ هذه الثرثرات الفارغة، فأنا أتضخّم ويعلو بطني وينفلش ويتدلّى في عيني نديم، فيحاول نديم أن يثور. أن يتجاهلني. أن يتحرّر منّي ومن الطفل ومن نفسه فيغيب أيّامًا وأسابيع. ودومًا... دومًا ينخذل راجعًا.

صديقتي،

أضحكني الطبيب، أضحكني امتقاع وجهه وهو يفرض

عليّ أن أتمدّد ثلاثة أشهر في الفراش، لأنّه يخاف علامات (زلال) بسيطة. فأنا لا أشعر بأيّ ألم أو انزعاج أو رهبة. وهذا التوتّر الذي يغزل في غرفتي، هذا الصمت النائح. هذه الوحشة، سببها اختفاء (نانا).

أين (نانا؟).

ما إن أطلق الطبيب أنوار البشرى حولي، حتى أسرعت إلى البيت. سحبت (نانا) من عربتها. وأخذتها بسيّارتي. واندفعت في جوانب العاصمة حائرة، أخترق طريقًا ممنوعًا، وأتوغّل في طريق آخر سدّه بيت خشبي مهدّم، فأتقهقر، وأبرم حول محطّة الترام وصفّارة الشرطي تحثّني على السرعة. السرعة. السرعة في التخلّص من (نانا).

وانحدرت في طريق المرفأ. وانطلقت باتّجاه الشاطئ على طريق جونيه. وتوقّفت عند بقايا بناء على شكل دائرة شُيّد على الصخور، والبحر يوازيه عميقًا، يهدر على مهل. وبيروت ساكنة تموج فضّيَّة اللون على بحر آخر من دفء. ومركب صيّاد بنّي عائد من جولته الليليّة، لم أنجح في تحديد اتّجاهه، المركب يدور في الأزرق ويدور. والموج الأبيض يرغي على الرمل والحصى ثم يضمحلّ. والسيّارات تنزلق على الإسفلت الداكن اللمّاع.

ربطت (نانا) بحجر، وأغمضت عينيّ، وشلحتها في الأغوار وأجهشت باكية، وركضت إلى السيّارة.

وسقت بجنون. بجنون. وتشنّجت يدي. اليد التي رميت بها (نانا). اليد التي أغرقتها، اليد التي أفنيتها أنا بها. سقت بجنون. بجنون بعثر جماعة كانوا يتكوّمون حول سيّارتيْ شحن تصادمتا، واحدة تحمل البحص والأخرى غنمًا، وتراجعوا مذعورين يحتمون خلف البيت الذي سبّب الحادث. بيت مهجور يقوم كالمقبرة في عين الشارع، في قلبه.

وسقت بجنون تتلوّى أمامي رقاب الأغنام المذبوحة و(نانا) تلبط بيديها برأسها بقدميها تستجدي الرحمة. الرحمة. والأغنام الحمراء تتأوّه بصوفها المصبوغ بالدم عاجزة. عاجزة عن الأنين. والبحر يرتفع أمامي على الطريق ويسودّ ويهيج ليبتلع (نانا) والأغنام وكلّ الأصوات. ويدي تتقلّص ورأسي يثقل.

فتقيّأت. ونغل طفلي في عروقي، يوزّع النمنمة الهنيئة في كلّ كياني، وخفقت يدي الموجوعة أنسًا به، ومرّت على سجنه بحنان. وتبسّمتُ له.

والآن.

وعلى السقف، وأنا ممدّدة، أراقب نموّ صغيري المتوثّب في انهزام الضوء وفي تكاثف العتمة. وعلى هذا السقف اكتشفت أنّ في البيت فوقنا أطفالاً ورشين يخبطون بأقدامهم الناعمة البلاط، ويكسرون زجاجات الحليب،

ويزعقون إذا انخبط باب المنزل الخارجي، واختبأت أمّهاتهم في المصعد. على السقف آنست بصياح ديك يخترق أبعادًا رحبة، فأشمّ به روائح بساتين اللوز والتفّاح وغابات الصنوبر وسهول القمح. وعرفت صاحب دكّان قريب، عرفته على سقفي من تكتكات القفل ورنينه وهو يفتح بابه الحديدي أو يغلقه، وصرت أقلق وأتنبّه في زحمة انشغالي وأتساءل: لماذا تأخّر اليوم؟ ربّما أُصيب بسوء؟ ربّما مات له إنسان.

وأهمّ من كلّ هذا، يا صديقتي، أنّ سيّدتنا الجليلة معي. أنّها هنا حولي بثيابها البيضاء ووشاح النور، تتوارى خلف صخور جبل المنيطرة، متتبّعة خطوات ولدها في ذهابه إلى الصيد وعودته، والأمّ وجلة تتساءل: «إلٰهي، أتحسّس أنّ ولدي سيشقى. لماذا خلقت ولدي ليتعذّب يا إلٰهي».

أيّتها الصديقة، أشعر بتعب، فهل؟ هل سيشقى ولدي أنا أيضًا؟

«عايدة»

١٦

«ببراءة. بكلّ الوقاحة تردّدين، لم يعد يعني عندي شيئًا. وأنت راجعة من بين ذراعيه. وأنا أنتظرك هنا كالكلب».

«رجا. أتشتمني لأنّني صريحة معك أمينة؟ هذا ما حدث بالدقّة: تلفن وطلب منّي لأوّل مرّة بإلحاح. بحزن. بيأس، طلب منّي أن أعطيه خمس دقائق فقط. خمس دقائق من وقتي...».

«وطرتِ إليه. وأنا كالأبله أتكرسح على كرسيّ يتسلّى روّاد «شي بول» بالتفرّج على ألوان الفزع في يديه. كنت قلقًا عليك».

«ألم تسلك الشمس في تقهقرها المغنّج نحو البحر؟».

«الشمس؟ هذه البندورة المفعّسة؟ أنا أكره الشمس والبحر وأكره نفسي».

«رجا. كان ينتظرني على الرصيف فاصطدمت به دون

أن أراه. ولحقت سيّارة بلون سيّارتك أشير لها أناديك. وغاب عن عينيّ ووعيي كلّ أثر له. وتوارت السيّارة. وتحسّست يده كتفي، فانتفضت واصفررت منزعجة ثم مرتبكة، ودخلنا باتيسري «لابريوش» في الحمراء...».

«العجوز القذر».

«وشبك ذراعيه وأسندهما على الطاولة وغمغم «تصوّري أنّني سأصبح أبًا» وخرس لحظات، والكمد يشخّ من الشعرات البيضاء على صدغيه، فمددت رقبتي بعد أن غافلت المرأة والكرسون ومرمغت شفتيّ بصدغيه، أرطّب بلساني اليَاس على جبينه، وأرخى رأسه على عنقي وردّد «بدأت أنهار. أنهار جديًّا ونفسيًّا» ارتجفت وغطّيت رأسه بشعري أحميه، أحمي هذا الإنسان من الأذى...».

قاطعها:

«اصمتي. قولي إنّك تحمينه هو».

تابعت:

«... فصفعتني المرأة بنظرة مؤنّبة انتبه لها هو، فأسند ظهره على الحائط وغاب. غاب عنّي. وأتاني صوته من جوف سُحب نائية:

ـ المطعم يزدحم بالسيّاح من كلّ لون وبلد ولسان. وفي باريس، في هذا الأتّون الذي اندعكت فيه الإنسانيّة

ونضجت وزَهَت ينفرون من كلّ امرأة بلا رجل وكلّ رجل بلا امرأة، فالوحدة بلاهة عندهم، والانفراد جرب.

في مطعم «مكسيم» كنت أرتاح على شفتي حسناء أحلّق بها إلى النجوم وتحطّ على جبين القمر. ومن خلال ثوب نجمة منير فضفاض، رأيت الكرسون يمدّد على الطاولة ورقة طُبع عليها تحذير الإدارة من تبادل القبلات، فلم أكترث له. ولم يزعجني مرّة أخرى أحد. ولم يتأذّ أيّ إنسان».

«العجوز الكريه. العجوز القذر».

«لماذا لا تكف عن شتمه؟ لماذا لا تسخّر ذكاءك في استنباط طريقة تعقد بها كرافاتك بدل أن تشتري في كلّ مناسبة كرافات جديدة ليعقدها لك صاحب المحلّ؟».

«العجوز النذل. الكريه. القذر».

«كنت أنوي ألاّ أخبرك. لكنْ الآن اسمع ماذا اكتشفت:

أشعل سيجارة، فأصبت بتمزّق في يدي اليمنى. وفجأة شقّ وجهك أنت دخان سيجارته الرقيق المهاجر، ودنا وجهك منّي منعني من الزعيق وصفع هذا الرجل المكوّم على الكرسي كجبال همّ بيضاء. ووجهك، وجهك أنت حملني من الباتيسري واندفع بي إلى الهواء الرحب وحين تلفّتُّ خلفي لمحت رجلاً يدبدب على الرصيف، لمحته

يزحف بعيدًا ناسيًا أنّ السيّارة الرماديّة له، يدبدب بعيدًا باتّجاه نهاية الشارع».

«العجوز القذر».

«رجا اكتشفت عند ذلك إلى أيّ مدى أنت مهمّ عندي وضروري».

«أنا غبي، نزلت مريضًا إلى المكتب هذا الصباح، لأتمكّن من رؤيتك في المساء. من أجلك زرت اليوم أهلي، فأقامت لي الوالدة أفخر مأدبة، واستفسرتني كيف آكل؟ من يكوي لي ثيابي؟ متى أنظّف غرفتي. وسألني الوالد عنك أنت «الفتاة التي يراك الناس دومًا معها». فأجبته «هي فتاة أحبّها وسنتزوّج».

ردّدت ميرا: «ماذا؟ ماذا؟ ماذا. . . ».

فقاطعها رجا:

«فصرخ الوالد «ماذا تقول؟» وثار «أنت تزداد وقاحة وتمرّدًا، ما دمت قرّرت وحدك فلماذا جئت إلى بيتي؟» ورجعت مخذولاً وأسرعت إليك أنا الغبي. أنتِ وحدك تمنحين هذه الأرض النتنة أهمّيّة عندي. أنت فقط. أشتهي أن أموت».

«رجا اعترف أنّك تشتهي فقط أن تقبّلني.

هيّا قبّلني أمام أعين الناس. هيّا، ماذا تنتظر؟ فيتبعثر

حزنك ويتفجّر عشقك للحياة عنيفًا صارخًا. هيّا».

«أنت ساذجة. أنت كتلة عظام تُثير الرأفة وتستنزّ حماية الآخرين، تستدرّ كلّ عطاء مخزون عندهم. عندي عشيقة أجمل منك. لكنّني هجرتها مذ عرفتك، لا يمكنني أن ألتذّ. أن أهنأ مع امرأة أصل من خلالها، بالوهم، إلى خبايا امرأة أحبّها، يعني إليك أنت. وهذا أغرب ما حدث لي».

«رجا، هل أنت جادّ في موضوع الزواج؟ هل عندك القدرة الكافية، عندك الشجاعة لتحمّل شخص آخر يلتصق بك في الليل والنهار: تأكل معه. تنام معه. ترقص. تتنزّه. هل أنت مصاب بالخمول لدرجة لا تنفّرك. لا تضايقك. لا تضجرك من وجه يلاحقك؟ أعتقد أنّني لست موهوبة في هذا المضمار».

«لماذا؟ لماذا تستبقين النتائج، هل تضمنين أنت المستقبل. اللحظة هي كلّ ما نملك مع أمل أنّنا ربّما نحيا دقيقة. ساعة. سنة، أو بضعة أعوام. فلماذا لا نجرّب الزواج. نجرّبه وإذا فشلنا نفترق بكلّ سهولة وبساطة. ميرا، هناك حقيقة يجب، يجب أن تقفي أمامها تحدّقين بها: إنّك ستموتين. الموت أو كما تسمّينه أنت (الغيمة البنفسجيّة) سيحملك يومًا إليه».

«أعرف.

أعرف أنّني سأسقط يومًا وأنتهي».

«لماذا تهربين إذن من الحاضر، وكلّ ما هناك هو أن تجابهي كلّ لحظة تمرّ. أريد أن تحدّدي موقفك منّي هل أنت حرّة لتقرّري؟».

«قل لي رجا، كيف أضمن أنّنا لن نفشل في هذه الخطوة؟ كيف؟ وأنا في كلّ مرّة أقلق في البحث عن مكان جديد نقصده، أو كلمة نبدّد بها الصمت الذي يكثفُ ويعلو... يعلو بيني وبينك فأعجز. أتدري لماذا؟ لأنّني أراك كلّ يوم. كلّ يوم. في المدّة الأخيرة رجا، مللت نفسي فصرت أحذر التطلّع إلى المرآة وأسرّح شعري وأنا مغمضة العينين».

«ميرا نحن نفلسف الحياة كثيرًا. لا تقلقي، حين نتزوّج نبتكر أفعالاً حلوة نغتال بها الصمت».

«رجا، كن لطيفًا هذا المساء وأوصلني إلى البيت. فأنا منذ التقينا لا أرجع قبل التاسعة والنصف. وتأخّري يعذّب الوالدة. أصيبت أمس بنوبة إغماء لأنّ هاني تركها وحدها في البيت ليشتري أسطوانات فتأخّر».

١٧

صفّقت الأمّ الورود البيضاء في مزهريّة كريستال مزخرفة، وتراجعت خطوة تحفّ يديها بفستانها عند الوركين، وتميّزت صورة الوالد الكبرى، فإذا وردة ممشوقة الساق تحجب ذقن الوالد، فهجمت عليها وقصّت ساقها فإذا الوردة قزمة تنطرح أوراقها على حافّة المزهريّة.

وعضّت الأمّ شفتيها تُفتّت غيظًا هيّجه زعيق نغم يتسلّل من تحت باب غرفة هاني وميرا (تشا. تشا. تشا. تشا. تشا. . فلامنغو) واستندت على حافّة المقعد تحني ظهرها ألمًا. وتطلّعت إلى الوجه الملوّن تستعين به:

«لا أدري ماذا حدث لولدينا، يا حبيبي، لا أدري.

في الثالثة والنصف من بعد منتصف ليل البارحة، عادت ميرا إلى البيت، مع أنّها اندسّت باكرًا أمامي في فراشها على غير عادتها هذه الأيّام. ولم تتذمّر من ضجّة أسطوانة يعيدها هاني ويعيدها ويعيدها. ترفزني موسيقى هذا الصبي

وتخيفني يا حبيبي. في أنغام طفلينا بدائيّة ووقاحة وعطش. وككلّ ليل منذ وُلِد لنا طفلان هببت من النوم حافية أرفع أطراف قميص نومي الأزرق. أتذكر قميصي الأزرق يا حبيبي؟ القميص الذي أعجبك لا يزال في خزانتي أعطّره. أقبّله. أحتضنه. أرتديه كلّما شاكسني ولدانا وكلّما تمعّن في وجهي رجل غريب.

حافية أحاذر الاصطدام بقطعة أثاث، وفي العتمة، وبين سريريهما جمدت مذهولة: فراشاهما مهجوران. أين هما؟ وانقضضت على الشراشف أستفهمها: أين قصدا؟ من يؤذيهما؟ وتساقطت على الأرض أنتحب وشددت فتحة قميصي الدانتيل أستجير (يا ربّي أعدهما سالمين. يا ربّي لا تمتحنّي بهما، فتنزل عليهما غضبًا من عندك. أو عقابًا. لا يمكنني أن أتحمّل فراقهما، إنّهما كلّ ما أملك. كلّ ما أملك، أتسمعني يا الله؟).

ومزّقت فتحة القميص. ثم نتفت القميص كلّه أجفّف به دمعي إلى أن... إلى أن سمعت وقع أقدام ناعمة في الخارج فجمعت الخرق ورجعت إلى فراشي أراقب...

تسلّلت ميرا في الممرّ بهدوء على رؤوس أصابع قدميها بالبلوجينز وقميصٍ بوبلين كحلي وخفّ أحمر مقطّع، فبدت لي في بريق ضوء الفجر الرمادي ومن خلال دموعي، بدت لي زهرة سوداء مرضوضة الأوراق، مكسورة العنق، لماذا

يشاكسني ولدانا هكذا؟ لماذا يا حبيبي هما غريبان. لماذا؟ أنا لا أدري.

وانتظرتُ دقائق طويلة قبل أن ألج الغرفة، فإذا هي ممدّدة على الصوفا بثيابها دون غطاء، وانحنيت فوق رأسها، فإذا أجفانها ثقيلة ترتعش وغمغمتْ، وموجة رائحة الويسكي تنبع من شعرها. من شفتيها. من عنقها. من صدرها ومن قدميها:

«أريد أن أشرب. جوفي يحترق. أريد أن أشرب».

فارتعبت، وتحسّست بيدي جبهتها فنفرت وألحّت: «أريد ماء». وتشبّثت بقنّينة تسع ليترًا من الماء، أطبقت عليها شفتيها وامتصّتها قطرة قطرة ورمتها على صدرها، فرفعتها بيدي ورحت أراقب طفلتنا وهي تتنهّد مرتاحة، ثم وهي تخلع قميصها، وتترك ظهرها العاري لهواء الصبح يلطّف حروق الشمس والبحر والملح والعرق على جسدها.

وغفت بابتسامتها، أتذكر يا حبيبي؟ الابتسامة الملائكيّة الحلوة نفسها التي كانت ترتسم على وجهها أيّام الطفولة، أيّام كنت أسند وجهي على كتفك، فأغوص.. أغوص في الاطمئنان.

والتفتُّ إلى فراش هاني الفوضوي بلامبالاة: تأخر الرجال يا حبيبي أقلّ توترًا عندي وأقلّ نقمة وأهون. أهون

لنقبله. وعاد هاني مع الشروق يصفّر فرحًا.

هذه الأنغام الجهنّميّة تطوشني يا حبيبي. تستفزّني. وهما يتجاهلان هروبهما البارحة، ويصرّان على الصمت، على عدم التحدّث إليّ».

وحملت الأمّ زهرات «الجربيرا» الحمراء المائلة للون أصفر فاتح، ودخلت غرفة هاني وميرا، وأدارت ظهرها تصفّف الأزهار في مزهريّة سوداء على شكل بوق دُهن جوفها بلون زمرّديّ اشترتها ميرا.

والغرفة خلف الأمّ تهدر بالتشاتشاتشا، تصفع زجاج الصورة أمامها، تنزع أوراق الجربيرا، وتسلخ لحم يدها نثرة، نثرة.

وميرا زوبعة بحريّة تجرح البلاط بقدميها الحافيتين:

«تشاتشاتشا... تشتشتا... فلامنغو بم بم. ببابمبم.. فلامنغو... واحد...».

وهاني يزوغ. يصفّق. يقفز بين السريرين والكرسي والطاولة ورفّ الكتب:

«أخطأت ميرا. أخطأت. الآن مدّي قدمك اليسرى. واحد. خطوة ثانية. برافو. تشتشاتشا... تشـ... ـا... فلا... منغو... هيّا ارجعي».

«هاني خجلت، خجلت أمس، والساهرون يذوبون في التشا الحالمة...».

وحملت الأمّ نظراتها الغضبى إلى وجه الوالد الهادئ على الحائط:

«أتسمع يا حبيبي؟ هذا اللحن حالم؟ أتسمع؟ هذا النغم العفريتي ينشر الأنوار والعطر والسكون».

بينما ميرا تكمل:

«كنت مرميّة في زاوية تتكدّس فيها كلّ أضواء الكاباريه اللزجة، أراقب السعداء يثملون باللّحن. يهاجرون فيه. يجرعون الدفء. . .».

وهمست الأمّ للصورة:

«أتسمع يا حبيي أتسمع؟».

وأكملت ميرا:

«وأنا أحتفظ بكلّ وعيي. عذّبني الوعي فيما الناس سكارى، وحفرة المرح تحت الأرض تفكّ ربطات العنق. تحلّ الورود عن خصور النساء وصدورهنّ. تكسر الكعوب تحت الأرجل. وتسقي الابتسامات من أيادٍ تفور بالشراب. وأنا في الزاوية أجمع أعضاء جسدي غيظًا داخل البنطلون والقميص والحذاء البخس، بينما الحرائر وأغلى أغلى العطور وأحدث التسريحات تطفو على وجوه الرجال فتُشَمّ وتُقبّل وتُدغدغ».

قاطعها هاني:

«أراهن أنّك كنت أجمل فتاة».

أكملت غير مكترثة:

«وأنا، لأنّ والدي الميت إلٰه عظيم وعليّ، عليّ أن أتعبّد له كلّ مساء. لم أعرف قبل البارحة أنّ الفتيات يخطن ثوبًا للسهرة ويتعلّمن الرقص».

ارتجفت الأسطوانة بين أصابع هاني الصغيرة وصرخ:

«لكن أنت تتعلّمين الرقص. أنا. أنا أعلّمك التشاتشا. هيّا دوري».

وميرا ساهية:

«وإذا الوعي وحش ترتجف مخالبه، تعوي، تحطّ فوق عينيّ، تنغرز فيهما، فأمطرت عيناي دمًا أصفر لطّخ وجوه الساهرين وأكتافهم وأيديهم وسيقانهم، وظلّت الثياب حالكة تدوخ... تدوخ. وثقل رأسي فرميته على طاولة القشّ، وطار بي الوعي إلى جزيرة بلا شطآن. بلا حشائش. بلا أنجم. بلا تراب. بلا سماء. فتجلّدت وارتجفت شفتاي، واشتهيت ذراعًا دافئة وفتّشت، بعيني الرماديّتين عن رجا في يمّ اللحن والألوان فارتدّت عيناي تنهزمان...

خذلني في تلك الهنيهة رجا، خذلني: أمام وعيي الوهّاج المتيقّظ رأيته يسند بين يديه رأس امرأة يراقصها،

لأوّل مرّة أصادف رجلاً يراقص رأس امرأة. كان يقذف الرأس فوق سياط النغم ويقبّل العين. والحاجب. والجبهة. ثم ينحدر إلى الخدّ. والشفة العليا. ثم الشفة السفلى. والذقن ويعود فيتسلّق الجبين.. والمرأة تمنح وجهها النشوان للضوء، للنغم، للهناء. آه، وكدت أمزّق الوجوه بصراخي. وأضرب كلّ الصدور بقبضتي. وأهرب. أهرب. أهرب...».

هنا،

دفنت الأمّ وجهها بين سيقان الجربيرا النحيلة الملساء وغمغمت للصورة:

«علّمت طفلينا يا حبيبي أنّ الليل للنوم فقط.. فقط..».

وتلوّى هاني على أرض الغرفة وضرب جبهته بالحائط ثم أنفه. وانسلخت الإبرة الحادّة عن الأسطوانة وتدلّت في فضاء الغرفة الواجم، فدارت الأسطوانة وميرا ساهية معها:

«وتمسّكت بوعيي، تشبّثت به أغمره، أحفظه تحت القميص بين ثديّ، ألم توحِ لنا الصورة المقدّسة أنّ كلّ ما يخلّ باتّزان العقل، كلّ ما يعكّر صفو الفكر وشعاعاته، هو كفر. هو انحطاط. هو جريمة؟

رجا سكران. والمرأة سكرانة. ورسوم الزنوج على حيطان المكان يسكرون. والقشّات المتدلّية من السقف تهتزّ سكرًا، ووعيي أنا؟

كان وعيي عقابًا. كان لعنة. كان نزاعًا بطيئًا لن ينتهي لا بموت ولا بحياة، فانقضضت على قدح لم يرشف منه رجا قطرة واحدة، وأفرغته في جوفي وأشعلت سيجارة».

حشرجت الأمّ:

«أتسمع يا حبيبي أتسمع؟».

وعضّ هاني أصابع يده اليمنى.

وميرا تتابع:

«وإذا أنا لهب لذيذ يفور في الزاوية ثم يمتدّ، يدفعه توق عنيف لينصهر في اللهب الصاخب، وقفزت من مكاني واختطفت قدحًا آخر أهمله صاحبه على طاولة مجاورة».

«أتسمع يا حبيبي أتسمع؟».

«وارتفع أمامي رجل أشقر، أمهلني حتى أفرغت قدحه هو في دمي. وسحبني إلى الحلقة المعربدة، وغمز عازف البوق الزنجي في الأوركسترا. وغطّاني بذراعيه وغصت أنا، غصت في كتفيه. وراح يدور، يدور في مكانه وأنا بلا حراك.

وغلغل شفتيه في شعري يستنشقه بإعياء. ثم رطّب أذني. أوّاه، كان أنفه سماء أطلقت عاصفة ثلجيّة على أذنيّ، على رقبتي. فشبكت ذراعي حول صدره أطرد الصقيع عنّي والظلام والرياح».

«عفوك يا حبيبي، عفوك لقد هربت».

«وانقضّ عليّ رجا، يزيح عنّي الرجل، وتلفّت فإذا كلّ الساهرين عند «بيبير» واجمون في أماكنهم يراقبون ساهرة بلا ثياب سهرة. لا تضحك. لا تنظر. لا تتحرّك.

وسحبني رجا إلى طاولتنا وكزكز غاضبًا: «سأقتله إذا عدت مرّة أخرى لمراقصته. لقد أسكرك النذل». وضحكت فخورة: إنّ رجا يهتمّ بي. رجا مستعدّ لقتل رجل آخر إذا لمسني. ثم انتفضت: «ما دخلك أنت، هل أنت عشيقي أم زوجي؟ لماذا كنت أنت تداعب رفيقته هو؟» فنرفز: «أنت الآن معي وأنا سأمنع عنك الأذى. كنت حمامة نائحة بين مخالب هذا النسر الكاسر، وعذّبني منظركما، عذّبني الرجل». فرددت ساخرة: «تشابيهك عاديّة، وأنت بارع فقط في استنباط الأوصاف».

وارتعشت، حين انتقل الرجل الأشقر والمرأة إلى طاولتنا ودهش رجا. وبلطف شرح الرجل لرجا كيف فاجأني أعبُّ قدحه وأبكي بصمت. وحكى عن نفسه: طيّار بلجيكي يحطّ على الأرض ليشرب فينسى الفضاء.

ويشرب قبل أن يحلّق لينسى أنّه في الفضاء. هكذا يسابق الغيوم إلى.. إلى النهاية. والمرأة صديقته جاءت لتزوره من هناك من بلادهما، وستعود إلى البلاد قريبًا. وأمّها قلقة عليها تحسب لبنان صحراء، فأرسلت لها إصبع حمرة وعلبة بسكوت. ستعود إلى أهلها حين يذوي قلم الحمرة. ويعود الطيّار ليسابق النهاية. وشدّني حنان غريب إلى الرجل فقبّلت خدّه.

وضمّ صديقته وقهقه «هذه فتاتي» وطلب قدحًا من الويسكي مزدوجًا بلا ماء ولا ثلج. وتحسّس رجا يديّ ورفعهما إلى وجهه يلثم اللحم الطري تحت الأظافر فشعرت أنّني أحتاج إلى رجا. أحتاج إليه. وشكاني رجا إليهما «هذه فتاتي، ترفض أن أقبّلها» وأطلقت البلجيكيّة ضحكة ماكرة. وعبس الطيّار يؤنّبني مداعبًا.

هاني:

لأوّل مرّة يشكوني إنسان إلى إنسان حيّ.

تبسّم هاني ساخرًا وشرح: «وأنا سهرت في «نايت كلوب» الأمبسادور في بحمدون. المغنّية ساحرة تأخذك بحنان صوتها إلى جزر تلتهب بأوراق الأشجار الواسعة الخضراء. ورمالها الناصعة، وأكواخ القصب. وغدًا ستأتي معي (فاليري) إلى بلاج (التاماري). غدًا سأمارس كلّ هنيهات يومي، وأهنأ بها».

«أتسمع يا حبيبي أتسمع».

وقالت ميرا:

«أنا أرغب،

أرغب أن أبدأ الحياة بُقبل رجا. وأنا أيضًا أرغب أن أمارس كلّ هنيهات يومي: النهار والليل. فأنا مللت، هذا السرير. مللت النوم الساعة التاسعة. مللت المكتب. مللت جسدي المحنّط. أنا أودّ أن أبدّل. أن أبدّل. أبدّل. والآن قرّرت أن أحقّق هذه التغيرات مع رجا».

تمتم هاني:

«قرّرتِ؟».

وصرخت الأمّ للصورة:

«أتسمع؟ تقرّر لوحدها أن تتزوّج؟ أتسمع».

وردّد هاني بضراوة:

«وأنا أيضًا قرّرت...».

فصرخت الأمّ:

«أتسمع؟ أتسمع يا حبيبي؟ وهاني أيضًا قرّر».

«قرّرت السفر إلى خارج البلاد لأتخصّص، فأنا أكاد أختنق هنا. الشوارع نحيلة متشابهة قزمة، فتبقى هذه الأبعاد الزرقاء المترامية فوقنا وتحتنا كأنّما العالم سماء

فقط وبحر. ونحن برغش نجترّ أحاديثنا، وندوّي فوق جثث أعمالنا. ونعيد ترديد نكاتنا ونضحك لها في كلّ مرّة».

وانقضّ هاني على الأسطوانة يقلبها فانفجرت الزنجيّة بلحن قاس. وخطت ميرا ثم دارت بإعياء. واستدارت الأمّ تنظر إليهما لأوّل مرّة، واستندت على حافّة الطاولة وارتفعت خلفها عروق الجربيرا والصورة:

«أتسمع يا حبيبي؟ خمس وعشرون سنة وأنا سجينة غرفة أحرسهما فيها. أسلّيهما. أشاركهما المرض والبكاء والضحك والجوع والشبع... ويصمّمان الآن على تركي. ماذا أفعل يا حبيبي ماذا أفعل؟».

قال هاني بإصرار:

«ميرا أنا لن أتراجع عن قراري».

قالت ميرا وهي تعجّل في دورانها:

«وأنا سأنفّذ القرار».

عادت الأمّ تواجه الصورة:

«أجبني ماذا أفعل؟».

همس هاني:

«ميرا هل الصوة تتكلّم؟».

ودوّى صوت ميرا:

«وهل الأموات يحيون؟».

وضربت الأمّ الطاولة بكوعيها:

«أتسمعهما؟ هيّا أجبني. أجبني. أجبني».

بهدوء قال هاني:

«أنا أراهن على أنّه لن يجيب».

وتابعت ميرا:

«وأنا أتراجع عن قراري إذا نطق».

واستغاثت الأمّ:

«أجبني. أجبني. أجبني».

وانتظرت الأمّ لحظة، ثم رشقت الصورة بالمزهريّة فتحطّم الزجاج بين قدميها وصاحت:

«سيتركانني. أجبني. وأنت. أنت تركتني. يعجبك أن يتخلّيا عنّي، أليس كذلك؟ كان عليّ أن أستنتج أنّ ولديك سيتبّعان خطواتك. تركتني بعد ثلاث سنوات من عيشتنا الرغيدة. آه، مللت أنت أيضًا قربي فتركتني خمسًا وعشرين سنة. أجل، أجل، فليتهشّم وجهك، علّ عينيك الجامدتين تتحرّكان. عيناك تخيفانني، تركتني أنت أيضًا باكرًا. كان عليّ أن أتزوّج صديقك منير الذي فرش تحت قدميّ حبّه

وشبابه وماله فرفضت. ما كان أغناني حين رفضت، وأبقيتك حيًّا في بيتي ونشرت جناحي فوق طفلينا، تمنحني أنت الشجاعة ليكبرا لي ولك».

«ميرا، لماذا لا تترك أمّنا هذا المسكين في قبره يرتاح؟».

«هاني. وهل تعتقد أنّ له أثرًا إلى اليوم؟ لقد فنيَ. لقد اضمحلّ».

«أتسمع. هيّا أجب. أجب. أجبني».

وقفزت فوق الطاولة. نزعت الصورة عن الحائط ورمتها على الأرض، ثم هجمت إلى الصالون. إلى الحمّام. إلى غرفة نومها. جمعت كلّ الصور وراحت تحطّمها، تدوس فوقها والدم يسيل من يديها وساقيها، ثم تساقطت فوق الخشب والزجاج تئنّ. واشتدّ صخب الموسيقى في غرفة هاني وميرا. وعلا، علا نحيب الأمّ:

«ماذا بقي لي؟ ماذا يبقى؟».

فتطلّعت ميرا إلى وجه هاني المتقلّص وردّدت مرتجفة:

«يبقى أن تقرّر والدتنا التخلّص منه، ثم تبدأ معنا مرحلتنا الجديدة».

١٨

تمهّل نديم متردّدًا على مدخل بار جديد في شارع فينيقيا. وعجز في نشفان الهدوء في رأسه عن قراءة اسم الباب. ودفع الباب بقدمه وغطس في علبة الضوء الناري الحادّ. ونشر كفّه على عينيه، ثم رماه في جيبه، وانسكبت على وجهه نظرات امرأة تكمن خلف الحاجز البنّي الأنيق.

ماجت على فم المرأة الرخو ضحكة خافتة، شجّعته على الدنوّ منها، وارتفع على مقعد أمامها، وأحنى رأسه يحفّ جبهته بالخشب الأملس، ثم نقّب عن وجه المرأة الضائع بين الزجاجات الزاهية، وحمل رأسه على ذراعيه فسألته بإنكليزيّة ثقيلة:

«بماذا أنعش أروع شابّ زارنا اليوم؟».

في نبراتها حنوّ دافئ سرى في يديه فتحرّكتا، وأشار إلى صفّ القناني الزاهية وأجاب بتعب:

«ويسكي».

استدارت المرأة ففكّر (أنّها خبيرة بنا، هذه وظيفتها. أتعلم هذه المرأة أنّ عايدة ماتت؟ وأنّ الطفل طُرح في وعاء زجاج يطفح بالأوكسجين. وأنّ ميرا هجرت البناية؟).

رفعت المرأة ذراعها العارية فتمايلت أطراف خصلات شعرها النحاسيّة، وانشقّت عن جذور بيضاء، فعجّل يخبّئ صدغيه بكفّيه (تعتقد هذه المرأة أنّها صامدة في وجه النهاية. سخيفة هذه المرأة، جبانة، موهومة. إنّها تتزحلق في الظلام، تحت خصلاتها المصبوغة، إلى العفن. وأنا أيضًا أتزحلق إلى العفن).

واجهته المرأة، والضحكة لا تزال تتعلّق بأطراف عينيها الباهتتين (إنّها على المحطّة تنتظر. وأنا على المحطّة أنتظر).

وضعت المرأة القدح على طرف البار، ثم زحلقته باتّجاه ربطة عنقه السوداء (لا ترى منّي المرأة غير ربطة العنق السوداء. ليتني أصبّ السائل على هذا القماش الأسود الجاف).

اختطف القدح، وعبّ الشراب. وطلب قدحًا آخر.

استندت المرأة على حجارة الحائط النافرة تراقبه يمتص قدحًا. وقدحًا... (كلّ بحار العالم لن ترويني).

انتشلت المرأة من حقيبتها المعطّرة مبردًا للأظافر راحت تنقله من إصبع إلى إصبع. (هذه المرأة نجحت في جمع ثروة فاستأجرت هذا المكان لتأمن شرّ الفاقة في عجزها. إنّها غبيّة. إنّها تضايقني. لماذا ماتت عايدة؟ لماذا وُلد الطفل. لماذا؟).

ولفّ خصر القدح براحة يده. وأغمض عينيه. وأفرغ في جوفه القدح الخامس، فسرى ملل ساخن في جوانب حلقه ثم تسرّب إلى ذراعيه. وحملق في قطرة واحدة ترسّب في قعر الزجاجة، وتساءل (هل هذه القطرة بنّيّة أم صفراء أم زرقاء؟ والطفل في شهره السابع قطرة لحم زرقاء في علبة زجاج).

وضرب الخشب بقبضة يده يلحّ:

«أعطيني قدحًا آخر. هيّا».

قذفت المرأة المبرد بهدوء على طرف منفضة السجاير، وصبّت له قدحًا ثم عادت وأمسكت المبرد تحرّكه ببرود فوق أصابعها.

وتضايق هو (لماذا ماتت عايدة؟ حين أدركت عايدة أنّها

عاجزة عن حمل الطفل تسعة أشهر، وما رفعتها على ذراعي في الطريق إلى المستشفى، حتى زرعت أظافرها في رقبتي تستغيثني. وحين انحنى فوقها الطبيب، يجري لها عمليّة ولادة قيصريّة، همست في أذنه بعناد أنّها ستنتحر إن هو اعتنى بها ونجّاها على حساب حياة الطفل).

وصرخ غاضبًا:

«هيّا. أفرغي لي قدحًا بلا ثلج بلا ماء».

احتفظت المرأة بالمبرد بيدها اليسرى، وبيد واحدة انتشلت، من جوف الحاجز الخشبي، قدحًا رشيقًا تلتفّ حول عنقه خطوط دهان حمراء وصفراء. وملأت ربع القدح فقط سائلاً دافئًا (لا تعلم هذه المرأة أنّني أحتاج إلى قدح يطفح.. يطفح بالويسكي).

ورفع رأسه بتأفّف، يبحث عن وجه المرأة، يودّ أن يؤنّبها على بخلها عليه بالشراب (كان عليّ أن أشتري زجاجة، زجاجتين أصبّ منها في الأقداح ثم ألحوس الأقداح وأكسرها على حيطان البيت كلّه. لكن. لكنّني أخاف، أخاف أن أجلس وحيدًا في البيت والباب مقفل. أخاف أن أظلّ وحيدًا).

وسبحت عيناه على وجه السائل، في قعر القدح أمامه، وفي بريق السائل الذهبي أطلّ وجه ميرا (أنا جبان. أنا

أضعتها . كان جسدها أراضي تمتدّ في سواد العين مدى النظر، أراضي حمراء التربة، غُرست بأشجار الكرمة. والكرمة في أزهى مواسمها، الكرمة جبال خضراء، والممرّات الصغيرة بينها مضيقات من النحاس، تعبر فيها سلال العنب. وعلى السواحل البعيدة خلف القمم، خلف المضيقات، تُقام أفراح، تشدو فيها الحسان بثيابهنّ المزركشة ويرقص الشبّان عراة الصدور، يرقصون في أحواض النبيذ فتسيل النشوة من الأقدام. من الخصور. من السواعد. من العيون والشفاه. وتطفح النشوة في يديّ أنا . لهذا كان يستفزّني...).

وأغمض عينيه برهة يحاول أن يبعد الوجه عنه. وحمل القدح وأفرغ في حلقه بضع قطرات، وامتصّ شفتيه (كان جسدها حيوانًا أليفًا ملّ الوداعة والسلام فسعى بغفلة وتكتّم، سعى يتقن فنون الشراسة والأذى ليمارس وحشيّته عليّ أنا . كان جسدها يرعبني، لهذا...).

وصبّ كلّ الشراب في جوفه (كان جسدها معبدًا قديمًا أبوابه عالية صُنعت من خشب الجوز ونُقشت عليها رسوم صبايا معصوبات الأعين، تسقط ثيابهنّ عن النهود، يحملن عربات مرفوعة على أكتاف رجال حُفاة. وشبابيك المعبد ضيّقة تسدّها ألواح من الزجاج السميك صُبغت بدوائر ملوّنة تحكي عن الشمس في دورانها وتبدّل ألوانها

واتّجاهاتها من الشروق إلى الغروب. وتتسرّب من بين حيطان المعبد المشقّقة تراتيل خافتة. مجرّحة. موجوعة. وتسري قشعريرة إيمان في كياني أنا ورهبة. كان جسدها يرهبني. لهذا...

لهذا...

لهذا كنت ألجأ إلى الماضي، يحميني من جسدها الذي يكاد يلتصق بي في هدوئه الساخط، وفي تربّصه المتحفّز الحيران).

قضمت المرأة ظفر إبهامها ثمّ رطّبته بلسانها. وعبس نديم (حاولت أن أقاوم جسد ميرا، أن أنتصر عليه، أن أكسبه. حاولت في عتمة البارات. في أنوار المطاعم المخدّرة. في هيجان السماء. في صقيع الأشجار. في عزلة الطرقات. في صمت السيّارة. في ليالي الأرق أعددت نفسي، ورحت أعدّ ميرا أيضًا للحظة أفنيها هي على صدري، وأتدفّأ. أرتاح. أبعث. وأفنى أنا بها. لكنْ عيناها. آه...).

انتفضت المرأة حين تأوّه نديم، ورمت المبرد من يدها، وصبّت له قدحًا جديدًا وملأت لنفسها قدح كونياك. فحاول أن ينظر إلى وجهها فارتدّت نظراته المتعبة إلى حافّة القدح (كنت إذ رأيت عيني ميرا الصافيتين تفوران بلمعان بريء وثقة عميقة بي، عميقة عمياء، كنت أنشلّ حين أضيع

في صفاء عينيها. مرّة قبّلتهما فانغلقتا وأسرعت أغتنم فرصة غيابهما وحاولت أن... لا. لم أجرؤ. إنّها عالم غريب لا أفهمه).

وحرّك يده يسحب سيجارة من العلبة، فسقط القدح عن حافّة البار وتحطّم على البلاط، فعضّ شفته. ولم تكترث المرأة، إنّما زادت على مجموع الحساب، في الورقة الصغيرة الخضراء، ليرتين. وأعدّت له قدحًا أبيض (أنا جبان. جبان... بعد غداء «الإيدن روك» صمّمت على نسيانها لكن... لكنّ صورتها كانت تهجم إلى قاعة المحاضرات تنتصب بيني وبين وجوه الطلاّب فتحرق الكلمات على شفتيّ، وأتعلثم، ويقهقه الشبّان الصاخبون الوقحون، ويمزّقون الصورة بأعينهم، ويختطفون شفتيها النديّتين. ويقتسمون نهديها الصغيرين الطريّين، وأنا؟ أنا أشاهد عمليّة الخطف هذه صامتًا، ذاهلاً، متألّمًا. وأنا؟ أنا أحلم بالنهدين الطريّين في ساعة واحدة أنامها في الليل، أو ساعتين: حين أغمض عينيّ وألمسهما ستنشف الدماء في عروقي وتتجلّد شفتاي، وتتدفّق منهما في عروقي نيران مدينة روما. آه...).

أزاحت المرأة ستارًا من الخرز الملوّن والقصب، وغابت في ممرّ معتم، ثم رجعت واستندت على حافّة البار، تلوّن أظافرها بطلاء أحمر فاقع. وسيجارة نديم

تذوي على مهل (أنا أستاذ تاريخ أعلوك أخبار الأموات. من أحرق روما، نيرون أم نهود الفتيات الصغيرات؟ لماذا تركتني ميرا، لماذا أنا فاشل. فاشل؟ لماذا ماتت عايدة، لمن إذن وُلد الطفل؟).

قرّبت المرأة أظافرها من وجهها ونفخت على الطلاء تجفّفه (كان يهمّ عايدة الطفل الذي حملته. وكانت ميرا وحدها تهمّني، وهكذا اتّصلت بها لأخبرها أنّني سأحتفظ بها لي وحدي. وأنّني سأطير بها إلى تركيا. ومن تركيا إلى أوروبا... إلى أيّ مكان تختاره. كنت لحظة تلفنتُ لها ووافقت على موعدي، كنت منهارًا وكنت أحلم ببلاد خضراء بعيدة، وغرفة تطلّ على البحر، وسرير جديد وأنفاسها تلفح رقبتي، وأنا أغطس في نوم عميق. هنيء... لكن. أنا فاشل... فاشل...).

وأشعل سيجارة، وطرف سيجارة له أخرى يحترق على طرف المنفضة (أنا جبان. آخر مرّة رأيتها عند «لابريوش» تركت كرسيّها وأدارت لي ظهرها، ثم تسمّرت برهة، ومشت... وأنا... أنا الجبان مشلول على الكرسي، أخرس. أبكم. أصمّ. نذل. جبان... لماذا؟ لماذا لم أشدّ ثوبها لم أضمّها إلى صدري وأعصرها على وجهي؟ لماذا تركتها تدوس في عينيّ وتبتعد.. تبتعد بخطوات ضيّقة. ساخرة؟).

قبل أن تبدأ المرأة بطلي أظافرها دورًا آخر. لمست قدحًا جديدًا لنديم، بإصبعين فقط من يدها، تتنبّه إلى ضرورة بُعد الأظافر الرطبة عن الزجاج، وحرّك نديم يده بإعياء يأمرها بإبعاد قطعة الثلج عن قدحه، فرمت المرأة قطعة الثلج في قدحها الفارغ، ورمى نديم رأسه على يده (لماذا أضعت ميرا؟ لأنّني سمعت امرأة طويلة اللسان حسودة خلفي عند «لابريوش» سمعتها تقول لرفيقتها «انظري. انظري إلى هذا الرجل المهترئ يقع في غرام صبيّة بعمر بنته. انظري. انظري..» ومع أنّ همسات الدهشة والاستنكار والشفقة كانت تلاحقني حين أعبر الشارع معها. حين أراقصها. حين نتسلّل إلى بار. وحين نحتمي في السيّارة. كنت ألتقط هذه الهمسات: «طفلة، ورجل بعمر أبيها. طفلة، ورجل بعمر أبيها...» هذه الحقيقة كانت تنهمر على كتفيّ. أجرّها معي. أجرّها.. وكنت أُجيب في سرّي «إنّها بعمري تمامًا، هكذا أشعر، والفرق بيني وبينها أنّني أنا مجرّب أرهقتني التجربة، وأرهقها هي ظمأ خشن للتجربة». لكنّني عند «لابريوش» وحين سمعت المرأة تسخر منّي، نظرت إلى وجهي في زجاج قبالتي، فأحسست الغبار يتكدّس على وجهي. الغبار.. الغبار.. وانشقّت عاصفة الغبار على الزجاج قبالتي، وانكشف لي، أمام عينيّ ظهر مستقبلي مع ميرا واضحًا. صريحًا. حقيقيًّا. قاسيًا. أنا على مقعد، قرب

المدفأة أغطّي ساقيّ بحرام صوفي، أقرأ الجرائد. وهي. هي تتزيّن أمام المرآة تصفّف شعرها الفاحم الذي يهيّجني، تصفّفه في قمّة رأسها وتغطّيه بورود حمراء وبيضاء. ثم ترشّ العطر على كتفيها وظهرها العاري وتتهادى أمامي تسألني «كيف أبدو؟ هل سأكون أروع امرأة في السهرة؟» وتغادر المنزل وحدها، لأنّ زوجها تعب. وتطير من ذراع إلى ذراع وتستلقي على صدر لأنّ زوجها تعب.. لا.. لا..).

رفع نديم رأسه، فإذا ارتخاء يسري في قدميه ويديه (لماذا ماتت عايدة؟ أنا أيضًا أودّ أن أموت. سألني الطبيب: «هل تريد يا سيّدي أن تلقي نظرة على زوجتك قبل أن ننقلها إلى غرفة الموتى؟» وحاول أن يكشف الشرشف عن وجهها فصرخت: «لا. لا.» فرماني بنظرة احتقار وغضب. ووددت أن أصوّب إلى وجهه لكمة تدميه... لكن. لكنّني جمدت عندما أطلّت عايدة... لا عندما أطلّ الموت.. لا عندما أطلّ شرشف أبيض مهفهف يجثم على سرير، يحرّكه رجل بثياب بيضاء يشمّر قميصه الأبيض فوق الكوعين، وتتبعه ممرّضة بثياب بيضاء. وأنا في الممرّ... والممرّ... والممرّ قاحل موحش لا ينتهي...).

مشت المرأة صوب «الجوك بوكس» وانحنت تفتّش عن

رقم أسطوانة. ودارت المقاعد في رأس نديم. والمرأة. والجوك بوكس. والطاولات والقناني. والسقف... (ووقفت أمام واجهة الزجاج الفسيحة في غرفة الأطفال علّني أعرف طفلي، لكنّ الطبيب ربّت على كتفي وسألني: «هل تريد أن تُلقي نظرة على طفلك يا سيّدي. إنّه في علبة زجاج يستكمل نموّه الطبيعي». فصرخت في وجهه: «لا. لا.» وهذه المرّة نظر إليّ بعطف).

وانطلق من صندوق النغم لحن قديم. ناعم. حنون. وعادت المرأة، ووقفت خلف البار، وتحسّست بأظافرها البرّاقة رأس نديم المطروح على الخشب وسألته:

«ألا تنوي مغادرتنا الليلة يا سيّدي؟ ألن تذهب؟».

فحاول أن يفتح عينيه لينظر إليها، لكنّه نزل عن الكرسي، وأسند ظهره على البار، والمرأة خلفه، وغمغم وهو يفتّش عن الباب بعينيه:

«إلى أين أذهب؟».

فهزّت المرأة كتفيها ضجرة:

«وكيف تريدني أن أعرف أنا إلى أين يجب أن تذهب أنت؟».

وسحب جسده معه، سحبه على طرف طاولة. على كرسي. على حائط. على الباب. على عمود كهربائي في

الشـارع. علـى ذراع أحـد المـارّة. . . عـلى زاوية مقـهى «لاباريت». وصاح على رصيف المقهى، ينشر ذراعه على عينبه (الضوء. الضـوء الفاجر. الضـوء في هذه المـدينـة السـافرة يعميني).

وانزلق، في شارع صغير مظلم، يتلوّى.



في كلّ ما ينتجه الكاتبُ، أيُّ كاتب، شيءٌ من نفسه ومن تجربته الخاصّة التي يمارسها على جلده هو، أو يشاهد الآخرين يمارسونها في عزلتهم. وفي كلّ ما ينتجه الكاتبُ كثيرٌ من الأشياء المحيطة به، ومن صور العالم الذي يَحْلم به أو يسكنه.

كَتبتُ **الآلهة الممسوخة**. كنتُ أنا عايدة الزوجة. وكنتُ أنا ميرا الصديقة. وكنتُ أنا الدُّمية. وكنتُ أنا الأمّ. وكنتُ أنا نديم. وكنتُ أعالج حياةَ هؤلاء الأشخاص من الداخل؛ كنتُ دائمًا في ذروة الانفعال معهم. وكنتُ أملك القدرةَ على امتلاكهم، والدخول إلى أغوار أنفسهم، فقط في ذروة الانفعال.


دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت


ISBN: 978-9953-89-148-4
9789953891484